# وقف المرأة في العصر العباسي الأخير 575-656هـ/1179-1258م

عدنان عبدالله عبيدات*

## ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مساهمة المرأة العباسية في الوقف في العصر العباسي الأخير575-656هـ/1179-1258م، بعدما اقتصر هذا الدور على نساء الدولة البويهية، والدولة السلجوقية خلال الفترات السابقة، وقد ساهمت زوجات الخلفاء العباسيين في فترة الدراسة من الجواري ومن أصول مختلفة، تركية ورومية وأرمينية في أعمال الوقف التي تركزت على بناء المدارس والمساجد والربط، وما ألحق بهذه المؤسسات من أوقاف لتوفير مصادر دخل بهدف ديمومتها، وقد أبرزت هذه المؤسسات العديد من العلماء الذين قَدِموا بغداد وعملوا بها، أو تعلموا فيها العلوم المختلفة وخاصة الشرعية منها، علماً أن وقف المرأة اقتصر في هذه المدة الزمنية على الوقف الخيري، طلباً للأجر والثواب، ومزيداً من الخير والإحسان، بعدما وجَّهت المرأة العباسية جلَّ أوقافها على المؤسسات التعليمية التي يستفيد منها شريحة واسعة من العلماء وطلبة العلم، بعد أن كانت تُخصص لهم جرايات شهرية ممّا أسهم في إحداث نهضة علمية وفكرية في تلك المدة الزمنية، إضافة إلى إسهاماتها في طريق الحج وبلاد الحرمين، وساهمت أوقاف المرأة في تنمية المجتمع في المجالات المختلفة.

**الكلمات الدالة:** المرأة، الوقف، المدارس، المساجد، الربط.

**المقدمة**

اهتم الفقهاء والمؤرخين بدراسة الوقف، بأحكامه وشروطه، والذي يُعتبر عبادة مالية(الطرابلسي،1902. الزرقا، 1998، ص22 وما بعدها. الزحيلي، 1998، ص140 وما بعدها)، فضلاً عن دوره الاجتماعي والاقتصادي، مما فتح المجال أمام الباحثين المحدثين، الوقوف على مساهمة المرأة في الوقف، والذي كان مرتبطاً بالظروف السياسية والاجتماعية لدار الخلافة العباسية.

وتعتبر الفترة السلجوقية(447-590هـ/1055-1193م)بداية لعودة المرأة بشكل خاص للحياة العامة، بعد أن ضعف هذا الدور في فترة الحكم البويهي(334-447هـ/946-1055م)، الذي تراجع فيه دور المرأة العباسية في المشاركة بالحياة العامة، بعد أن انتقل هذا الدور إلى نساء آل بويه(مسكويه، 2003، ص66)، فكان ذلك جزءاً من عودة رسوم دار الخلافة من جديد، ويُعتبر الصابئ(ت448هـ/1056م) الذي كان قريباً من دار الخلافة بحكم توليه ديوان الإنشاء في عهد الخليفة القائم بأمر الله(ت467هـ/1074م)، أول من تنبه إلى حفظ رسوم دار الخلافة، عندما صنَّف كتابه المشهور(رسوم دار الخلافة)، بعد أن وجد "أكثر ذلك قد دَرَسَ بتقادم عهوده"(الصابئ، 1986. ص5. المسعودي، 1893. ص 377). وجاء من بعده ابن الساعي(ت674هـ/1275) الذي عاصر فترة من خلافة الناصر لدين الله(575-622هـ/1180-1225م)، الذي دانت له السلاطين، وقمع الأعداء، ودخل في طاعته من كان من المخالفين(الصفدي،2000. ج6، ص193. ابن الساعي، 1209هـ. ص108 وما بعدها)، لتعود في عهده هيبة الخلافة ورسومها، وكان من ضمنها مشاركة المرأة في الحياة العامة، وبشكل خاص في الوقف، وهو ما دفع ابن الساعي(ت674هـ/1275م)، لتأليف كتابه الذي سماه(نساء الخلفاء)، والذي وثَّق فيه لدور نساء الخلفاء في الشئون العامة، ليست الاجتماعية فحسب، بل طال ذلك إلى دورهن في التدخل في اختيار ولي العهد، وفي شئون الإدارة(ابن الدبيثي،2006م، ج2، ص56. الذهبي، تاريخ،2006،ج12، ص1138). وقد أراد ابن الساعي بنساء الخلفاء (جهات الخلفاء)"ذوات المعروف والعطاء"(ابن الساعي، د.ت. ص43). والجهة كناية عن زوجة الخليفة أو حظيَّته(ابن الجوزي،1990، ج14، ص335)، وقد ساد هذا اللفظ أيضاً في العصر السلجوقي(ابن الجوزي،1990، ج16، 75، 253،83،80،79).

تركَّزت مساهمة المرأة العباسية في الوقف في هذه الحقبة على أمهات وزوجات الخلفاء، اللواتي كنَّ من أصول غير عربية،

* كلية الآداب والعلوم، جامعة العلوم الإسلامية العالمية. تاريخ استلام البحث 2018/10/13، وتاريخ قبوله 2019/6/16.

 ©2020 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

من أصول تركية(ابن الدبيثي،2006، ج5، ص140)، ورومية(ابن الساعي، د.ت، ص114)، وأرمينية(ابن الجوزي، 1990، ج16، ص164. ابن الكازروني، 1970. ص202. ابن الوردي،1996، ج2، ص7)؛ فقد كانت قصور الخلفاء في أواخر الدولة العباسية تعجُّ بالعديد من الجواري على اختلاف أصولهن، وهو ما كان سائداً أيضاً في العصر السلجوقي، ومن المفيد أن نذكر أن بعضهن كن ذات مكانة، ينتسبن إلى الأسرة السلجوقية الحاكمة(ابن الساعي، د.ت، ص115. الذهبي،2003. ج12، ص669). كما أن العزوف عن الزواج من الحرائر كان واضحاً في هذا العصر، لذلك شاع في أواخر العصر العباسي لفظ زوج الحرة(AL-Rudainy, 2014, p86)، فكانت الزوجة الحرة تحمل لقب الحرة تمييزاً لها عن باقي محظيات الخليفة من الجواري(ابن الجوزي، 1992،ج14، ص335،298.ج17، ص326،222. الصفدي، 2000، ج14، ص164)، حتى امتلأت قصور الخلفاء بالجواري، مما ساهم في رفع مكانة الجواري، الأمر الذي أدى إلى تغيير نظرة المجتمع لهذه الفئة التي تمتعت بكافة الحقوق السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية(المقريزي، 1996، ج3، ص28)، وأخذت تقوم بالدور نفسه الذي كانت تقوم به زوجات الخلفاء الأوائل.

وتأتي هذه الدراسة لاستكمال البحث في هذا الموضوع، والتركيز على العصر العباسي الأخير، بدراسة وقف المرأة، وإدارته، وأثره على تنمية المجتمع، والتي احتاجت إلى جهد مضنٍ في البحث بين ثنايا المصادر، للوقوف على هذا الموضوع بكل جوانبه، لما لهذه المدة الزمنية من أهمية كبيرة، أعادت لدار الخلافة جزءاً من صلاحياتها، بعد تخلصها من سيطرة العناصر الأجنبية كما سيتضح معنا في هذه الدراسة، وخاصة أن العديد من الباحثين لم يلتفتوا إلى دراسة العصر العباسي الأخير، وبعد أن وصفته بعض الدراسات بعصر الفوضى والضعف، معتمدين على بعض المصادر التي وصفت آخر خلفاء الدولة العباسية المستعصم بالله(640-656هـ/1242-1258م) بالضعيف، بعدما استولى أصحابه وحاشيته على إدارة الدولة (ابن الطقطقا، 1966، ص333). لكن الدارس لهذه المدة الزمنية يجد أن هناك فترات ذهبية ومضيئة في هذا العصر، ومنها فترة الخليفة الناصر لدين الله، والظاهر، والمستنصر بالله، الذين استقلوا بحكم الدولة العباسية، حتى أصبحت الأوقاف غير مقتصرة على ذوي السلطة من الخلفاء والوزراء والولاة.

ويُعتبر عصر الخليفة الناصر لدين الله(575-622هـ/1180-1225م) تحولاً في مساهمة المرأة في بناء المؤسسات العلمية، فعصره استقرار واستقلال لدار الخلافة العباسية (Karsh,2013.p65.Koscielniak,2010. P14)، بعد أن هدم دار السلطنة السلجوقية، وعمل على محو آثار السلاجقة في بغداد، فقد "جرَّد عزيمته في قطع سلاطين العجم السلجوقية وغيرهم من بغداد، ومحا آثارهم"(ابن الكازروني،1970، ص245)، ويذكر السبكي في أحداث 577هـ/1181م، أنه "فيها ظهرت الوحشة بين الخليفة الناصر والسلطان"(السبكي، د.ت. ج4، ج7، ص368)، ويذكر ابن طباطبا أنه "في أيامه انقرضت دولة آل سلجوق بالكليَّة"(Muir, 1915,p589)، لذلك اعتبره بروكلمان آخر الدهاة من بني العباس(بروكلمان، 1968، ص379). وقد ظهرت آثار استقلال الخلافة في مدى الأعمال التي قام بها الخليفة الناصر لدين الله، وخاصة في أعمال البر والخير، كما أضاف الكثير من رسوم دار الخلافة العباسية في هذه المدة الزمنية(ابن الطقطقا، 1960، ص312)، "وكان له من المبارّ والوقوف ما يفوت الحصر"(ابن الطقطقا، 1960، ص312)، فقد عمَّر المساجد وبنى الربط، والتي (أصبحت مسكناً للصوفية والغرباء، يتعلمون فيها القرآن الكريم، والعلوم الشرعية. (ابن منظور، د.ت، ص301)والمدارس، "وعمَّر دار المضيف للصادر والوارد من الحاج وغيرهم"، كما وقف العديد من الكتب الفقهية في خزائن الكتب(ابن الكازروني،1970، ص246). وكل هذا نتيجة للاستقرار الذي شهده عصره خلال مدة حكمه الطويلة(Muir, 1915,p589). لذلك يُعتبر عصره تحولاً كبيراً، بعدما امتلكت الدولة العباسية زمام الأمور، وعادت لها رسومها التي غابت عنها في فترات النفوذ الأجنبي، وبناءً على ذلك جاءت هذه الدراسة للحديث عن وقف المرأة ودوره في تنمية المجتمع من بداية خلافة الناصر لدين الله.

لقد تطرق العديد من المؤرخين للوقف من الناحية التاريخية، فقد تناول مصطفى جواد الموضوع عند حديثه عن دور المرأة السياسي والاجتماعي في الدولة العباسية. انظر،(جواد، 1960. ص136)كما طالت اهتمامات المؤرخين وقف المرأة منذ العصر الأول للدولة العباسية وتوسعوا به، حين تناولوا أوقاف الخيزران والسيدة زبيدة(أبوت، 1969م. الراشد، 1977م)وهناك دراسة لوجدان العزايزة تناولت فيها دور المرأة في العصر العباسي في الفترة السلجوقي والفترة المتأخرة، وتناولت الباحثة دور المرأة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ودورها في الحياة العلمية والثقافية، والذي اقتصرت فيه الباحثة الحديث عن تعليم المرأة، ثم أفردت جزئية عن دورها في بناء المدارس والمساجد(العزايزة، 2004م)وتناول الدكتور محمد الأرناؤوط وقف المرأة من خلال مجموعة أبحاث ضمنها كتابه الموسوم بـ (وقف المرأة في عالم الإسلام). (الأرناؤوط، 2014م) وهناك دراسة لأمل الكردي، تحدثت فيها عن دور النساء في الدولة العباسية في المجالين السياسي والاجتماعي، وتطرقت الباحثة إلى العصر العباسي الأخير، من خلال

الحديث عن تراجم لدور المرأة في الحياة الثقافية، من خلال بناء المدارس والمساجد والربط(الكردي، 2016) غير أن الباحثتان(العزايزة والكردي) لم تتطرقا إلى إدارة مؤسسة الوقف، ودور الوقف في خدمة المجتمع.

- **إدارة مؤسسة الوقف575-656هـ/1179-1258م**

يجدر بنا قبل الحديث عن وقف المرأة، تناول إدارة الوقف التي أسهمت في الإشراف المباشر على شئونه، وخاصة أن الأوقاف لم تقتصر في فترة الدراسة على الخلفاء والأمراء بل شملت المرأة، وما ساهمت به من إنشاء المؤسسات التعليمية، والمساجد، والربط، وغيرها، والتي بفضلها استمرت هذه المراكز في تأدية رسالتها في نشر العلم والمعرفة لسنوات عديدة، والتي ساهمت أيضاً في ظهور العديد من أعلام المدرسين والعلماء، إضافة إلى مساهمتها في تنمية المجتمع في مجالاته المختلفة، ويعطينا ابن جبير صورة واضحة عن أوقاف المدارس، وعن مؤسسة الوقف في بغداد، وما يُلحق بها من الأوقاف، ومصادر الإنفاق على المدرسين، والطلبة "ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تتصير إلى الفقهاء والمدرسين بها، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم"(رحلة ابن جبير،د. ت،ص205).

ولا شك أن ما ذكره ابن جبير يعطينا صورة واضحة عن مدى الاهتمام الذي أدى إلى تخصيص هذه الأوقاف الكثيرة، بهدف الإنفاق على الوقف وتوابعه، وهذا يقودنا إلى مسئولية الإشراف على هذه الأوقاف الكثيرة، إذ يتضح من الروايات التاريخية أنه غالباً ما كان الإشراف على إدارة الأوقاف في الدولة العباسية مسؤولية من يتولى منصب قاضي القضاء، ففي سنة596هـ/1199م تولى النظر في وقوف المدارس جميعها والوقوف العامة قاضي القضاة، أبو محمد القاضي ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري(ت599هـ/1202م)(ابن الساعي، 1934.ج9، ص11. الغساني، 1975، ص281). على أنه لم يكن شرطاً لمن يتولى الوقوف أن يكون قاضياً للقضاة كما يورد ابن الساعي، فقد تولى أبو الحسن الكاتب (ت596هـ/1199م النظر في الوقوف عامة(ابن الساعي، 1934، ج9، ص36). كما تولى إدارة الأوقاف الفقيه الشافعي أبو طالب يحيى بن علي بن اليعقوبي(ت617هـ/1220م)، والذي لم يَرِد في المصادر أمه تولَّى منصب قاضي القضاة، وإلى جانب ذلك كان لكل مدرسة أو رباط ناظر يشرف على الوقف(ابن الدبيثي،2006، ج3، ص456)، وغالباً ما كانت هذه المهمة تُناط بالمدرّس الذي يُعيَّن من قِبل الشخص الواقف، والذي يُعتبر المشرف المباشر على الوقف، فهو مكلَّف بالمحافظة على المكتبة ومحتوياتها، لذلك يشُترط فيه أن يكون متمتعاً بالأمانة والخلق، والخبرة والدراية بالشئون الإدارية، والمالية الضرورية لإدارة مهمته حسب نوع الوقف وأغراضه(قحف، 2006م، ص168).

وعلى هذا كانت مهمة ناظر الوقف تشمل الإشراف العام، والإشراف الفني؛ والإشراف العام يشمل إدارة أموال الوقف التي تغذي المؤسسة، بينما الإشراف الفني يخصُّ الخازن ومعاونيه؛ فهو يختص بالخدمة الفعلية للمدرسة أو المكتبة دون شك فإن مرتبة المدرّس كانت هي الأكثر مكانة عن باقي الجهاز الإداري(Toru, 2018 ,p139) .

وبذلك تُعتبر مهمة إصلاح وتنمية الوقف من المهام الأساسية التي تُناط بناظر الوقف، هذا فضلاً على الإشراف على جمع وارد الوقف كاملاً وبصورة صحيحة، دون تعدٍ عليه، كما يُشرف على صرف هذا الوارد في أوجهه المخصص لها حسب ما شرطه الواقف(التنوخي، 1995. ج8، ص20)؛ من رواتب للمدرسين، وجرايات للطلبة، إضافة إلى ما يَلحق ذلك من إصلاح وترميم للمؤسسات الوقفية. وهذا يُفسر إن إدارة الوقف كانت تجري على أنها مؤسسة وقف عامة.

ومن خلال تصفح الروايات التاريخية نجد أنه كانت هناك إدارة مستقلة لإدارة الوقف في هذه المرحلة، وغالباً ما كان يتولى شيخ المدرسة النظر في أوقافها، ويتضح ذلك من خلال مراسيم تعيين المدرسين، فقد أورد ابن الساعي مرسوم تعيين ضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني مدرساً ومشرفاً لمدرسة أبي حنيفة سنة604هـ/1207م، فقد جاء في مرسوم التعيين "... وليصرف حاصل الوقوف المذكورة في سبلها بمقتضى شرط الواقف...وليبذل جهده في عمارة الوقوف المذكورة واستثمار حاصلها وارتفاعها، مستخيراً من يستخدمه فيها من الأجلاء والأمناء"(ابن الساعي،1934، ج9، ص233-236). وفي سنة605هـ/1208م تولى أبو المحاسن عبد اللطيف بن نصر الله بن علي الواسطي المعروف بابن الكيال التدريس بمشهد أبي حنيفة "وفوّض إليه النظر في الوقوف عليه وعلى غيره من المدارس الحنفية"(ابن الساعي،1934، ج9، ص280). وفي عام 599هـ/1202م تولى ابن المحتسب أبو الشكر محمد بن سليمان الواسطي القضاء في بغداد، والنظر في أوقاف المدرسة النظامية(ابن الأثير، 1987، ج13، ص41). وذكر ابن كثير الفقيه أبو علي يحيى بن ربيع الواسطي(ت606هـ/1209م)، الذي قال عنه "صار مدرساً بالنظامية، وناظراً على أوقافها"(ابن كثير، 1988، ج13، ص65). وأبو النجيب السهروردي الذي تولى التدريس بالمدرسة

النظامية والنظر على أوقافها(ابن الساعي،1934 ج9، ص298). وكان أبو عبدالله محمد بن يحيى بن فضلان ينظر أيضاً في أوقاف المدرسة النظامية، كما تولى النظر في ديوان الحسبة والنظر في أوقاف المدارس الأربعة، فلم يزل على ذلك إلى أن توفي الخليفة الناصر لدين الله622هـ/1225م(ابن الساعي،1934 ج9، ص11.AL-Rudainy, 2014, p252)، وبذلك فقد احتوت صيغة الوقف على طبيعة إدارة الوقف بجوانبه المختلفة.

وبذلك يمكن القول أن من يتولى الإشراف على الأوقاف كان يُعين بتقليد رسمي يتضمن واجباته حسب ما حدده كتاب التعيين النظر في الوقوف، من حيث موردها وأوجه الإنفاق، كما أن أمر النظر في الأوقاف كان بيد أصحابها أو نظَّار الوقف حسب ما جاء في شروط الواقف، مع وجود من يتولى النظر في الأوقاف جميعها، والذي يتم تعينه بمرسوم خاص(Toru, 2018 ,p139)، واتضح من خلال الروايات أن مسئولية الإشراف العام على الأوقاف اقتصرت الإشراف والتوجيه.

ودون شك فإن وجود إدارة خاصة للأوقاف من خلال ناظر الوقف ساهم بالإشراف المباشر على شئون الوقف، وما ألحق به من أوقاف للإنفاق على الوقف حسب ما جاء في شروط الواقف(Toru, 2018 ,p137) . ويعتبر وقف المرأة مكمّلا لدور الدولة تجاه بناء المراكز العلمية، حتى أصبحت أمراً واقعاً، وأصبحت من رسوم الدولة الإدارية والدينية.

وبهدف إدامة الوقف والمساهمة في نشر الثقافة وتنمية المجتمع، جاء تعيين ناظر الوقف لحرص المرأة على توفير الأوقاف الملحقة بالوقف بهدف توفير الدخل والرواتب والأجور، وقد تنوعت مصادر الدخل على الأوقاف ما بين الأراضي والعقارات، فقد أوقفت العالِمة شُهْدة الإبرية(ت574هـ/1178م) على الرباط الذي بنته أوقافاً للإنفاق عليه وديمومته، وأوكلت مهمه خدمة الصوفية فيه إلى الفقيه الشافعي، أبو المظفر عبدالله بن خميس، الذي قَدِم بغداد من أذربيجان، والذي كان عالماً بمسائل الخلاف والمذاهب(ابن الدبيثي،2006، ج3، ص456).

وعندما بنت أم الخليفة الناصر لدين الله زمرد خاتون رباط المأمونية (ابن الدبيثي،2006، ج4، ص596)، وجعلت أبو القاسم بن أبي عبدالله الصوفي(ت591هـ/1194م)، شيخاً للصوفية المقيمين فيه، كما أسند إليه النظر في أوقافه، وقد بقي يشرف على رباط المأمونية حتى وفاته سنة 591هـ/1194م(ابن الدبيثي،2006،ج3، ص499). وكان من المألوف عند تعيين المدرسين والشيوخ أن تراعى اعتبارات أخرى، كأن يتولَّى الابن مكان أبيه، ويذكر ابن الدبيثي أن أمَّ الخليفة قد عيَّنت من بعده ابنه محمداً، وكان عمره حينذاك اثنا عشر سنة "فأنعمت عليه وجعلته مقدماً في الرباط المذكور بالمأمونية، وشيخاً فيه على قاعدة أبيه...إلى أن عُزل سنة611هـ/1214م"(ابن الدبيثي،2006، ج1، ص397). وأشرف على خدمة الصوفية في هذا الرباط، أحمد بن عبد المنعم، أبو الفضائل بن أبي البركات بن أبي طاهر الصوفي(ت614هـ/1217م)، وأُسند إليه النظر في وقفه ووقف التربة المجاورة له(ابن الدبيثي،2006، ج5، ص290).

وعُمل إلى جانب الرباط مشهداً للشيخ علي بن الهيتي(ت564هـ/1168م)(الذهبي، 2006، ج12، ص325)، الذي كان صاحب كرامات ورجلاً صالحاً، ويبدو أن زمرد خاتون أرادت من ذلك رفع شأن الرباط، ولم تكتف أم الخليفة ببناء هذه القبة، فقد أوقفت عليها قرية جميلة يخصص نتاجها للقبة، وحُملت إلى القبة كل ما تحتاج إليه من فرش وقناديل من فضة وذهب، ويبدو أنَّ الشيخ الهيتي كان له مكانة كبيرة عند زمرد خاتون، فلما مات عملت على قبره صندوقاً من الساج، وأنفقت عليه أموالاً كثيرة، وكتبت عليه: "هذا ما أوقفته بحر درَّة أمير المؤمنين"(الأيوبي، 1401هـ، ص179). وكان هذا الرباط يحظى بمكانة كبيرة، فقد كان مكاناً لتكريم ومنح الخلع على رجال الدولة، فأصبح له مكانة رسمية في الدولة، فعندما حضر نائب الوزارة في دار نصير وخُلع عليه الخلع وقُلِّد سيفاً، عُمل له دعوة في هذا الرباط(ابن الفوطي،2003م. ص77).

وحسب الرواية السابقة التي أوردها الأيوبي بأن زمرد خاتون أوقفت قرية على رباط المأمونية بعد إعادة تجديده، لا شك أن مثل هذه الأوقاف تحتاج إلى إدارة خاصة للإشراف عليها، ومتابعة أوجه الدخل والإنفاق على الوقف من وارد هذه القرية، والذي كان يُصرف على النزلاء، وتُدفع منها أجور الموظفين، وكُلف الصيانة. وكل هذا يقودنا إلى تقرير حقيقة التنظيم الإداري لوقف المرأة كسائر وقوف الدولة، وخاصة أن هذا الرباط قد خرب نتيجة للغرق الذي أصاب بغداد، وتم تجديده وافتتاحه سنة650هـ/1252م، حسب ما ذكره صاحب الحوادث بأنه "كان قد تشعَّث منذ الغرق وأُجري على ما كان عليه أولاً"(ابن الفوطي، 2003، ص202).

- **دور وقف المرأة في تنمية المجتمع:**
- **وقف المدارس والمكتبات**

ارتبطت أوقاف المدارس والمكتبات بمفهوم الوقف الذي يُعتبر صدقة من أعظم القربات، وأفضل العبادات التي يرجو منها الواقف الثواب بعد موته وانقضاء أجله، في الوقت الذي لم يقتصر دور المدارس على الوظيفة التعليمية، بل ساهمت بتقديم خدمات اجتماعية من خلال توفير السكن، سواء أكان لشيخ المدرسة، إضافة إلى الطلاب القادمين من أماكن بعيدة.

ففي مجال المدارس لم تدَّخر المرأة خلال فترة الدراسة جهداً في ذلك، من خلال تعمير وبناء عدد من المدارس، وهذا يقودنا إلى القول أن مهمة إنشاء المدارس لم تكن من مهام واختصاص الدولة فحسب، فبعد أن كان هذا الدور مقتصراً على أرباب الدولة من الخلفاء(Muir, 1915,p589)والأمراء والوزراء، ساهمت المرأة أيضاً في هذا المجال، كما يبدو أن توسع مدينة بغداد، وكثرة عمرانها مع قدوم أعداد كبيرة من العلماء وأصحاب المذاهب، جعلت الحاجة ملحة لبناء مثل هذه المدارس.

والظاهر أن دور المدارس لم يقتصر على التدريس، فعندما بنت زمرد خاتون أم الخليفة الناصر لدين الله مدرستها سنة589هـ/1193م، يبدو أنها أرادت أن تكون المدرسة على نمط مدارس الوزراء والأمراء، من حيث بناء المدرسة الذي احتوى على سكن المدرس، وسكنات للطلاب(ابن الدبيثي،2006، ج2، ص184. جواد،1960، ص174)، وهذا يشير إلى أن المدرسة كانت مفتوحة لكل طالب علم؛ فإن كان غريباً تمَّ تأمين لها الإقامة، وإن كان معسِراً قُدّم له المال وأدوات الدَّرس، ومن جهة أخرى فإن احتضان هذه المدارس للعديد من الطلبة، ساهم أيضاً اقتصادياً بالتخفيف من الأعباء المالية للدولة، من خلال المساهمة في النفقات على هذه الفئات(رحلة ابن جبير،د.ت، ص205). بعد أن خصصت لهم زمرد خاتون الجرايات(ابن الدبيثي،2006، ج2، ص184)، دون أن تُحدد الوقفية مقدار هذه الجرايات، ويبدو أن هذه المدرسة حقَّت ما أرادته زمرد خاتون بعدما أصبحت محجاً للعديد من العلماء والفقهاء وطلبة العلم، وأصبحت تقدم خدمة التعليم لكافة شرائح المجتمع، ومن مناطق مختلفة، وهذا ما شكَّل استمراراً لتكوُّن طبقة من الطلاّب والشيوخ، ورغم أن وثيقة الوقف لم تُفصح عن الخدمات التي كانت تُقدَّم للطلاب، فالظاهر أن إقامتهم اشتملت على توفير الطعام، وأدوات الدراسة من الأقلام والأوراق، ولا شك أن ذلك ارتبط بمقدّرات المدرسة المالية من خلال الأوقاف التي كانت توقف عليها(ابن الدبيثي،2006، ج2، ص184).

وتُعتبر المدرسة التي بنتها زمرد خاتون مثالاً على ذلك، وبمناسبة افتتاحها عُمل احتفالاً كبيراً حضره رجال الدولة، وعُمل سماطاً عظيماً، وخاصة أنها ضمَّت خيرة المدرسين، وتزايدت قيمتها العلمية والتدريسية، عندما أمرت أن يدرّس فيها الفقيه الشافعي فخر الدين أبو عبدالله محمد بن أبي نصر النُّوقاني (ت592هـ/1195م)، والذي كان يُعتبر من كبار الأئمة وفقهاء الأمة في ذلك الوقت(السبكي، د.ت، ج7، ص29)، وقد "درَّس بها سنة 589هـ/1193م...وأُجريت له الجراية الحسنة... وحضر عنده الكثير من المدرسين والفقهاء والصوفية والأعيان وأسكن بدار المدرسة، وانتقل إليه جماعة من المتفقهين سكنوا بها أيضاً"(ابن الدبيثي،2006، ج2، ص184. جواد،1960، ص174). ولا شك أن النُّوقاني قد بلغ مكانة عالية، مما جعل زمرد خاتون تعوّل عليه للتدريس في مدرستها، وهذا يعني أن مدرّسيها كانوا متخصصين ومتفرغين على غرار المدارس النظامية. وبذلك كانت المدارس الموقوفة ملجأ للعديد من العلماء، الذين مارسوا دورهم التعليمي من جهة، وحصلوا على مورد مالي من جهة أخرى.

ودرَّس في هذه المدرسة عدد كبير من العلماء، منهم الفقيه الشافعي أبو الحسن الفارقي، علي بن سعادة بن الجُنيس(ت602هـ/1205م)، الذي درَّس بها إلى أن تُوفي(ابن الدبيثي،2006، ج4، ص473. السبكي، د.ت، ج8، ص296. الغساني، 1975، ص603). والفقيه الشافعي أبو سعيد القاسم بن أبي منصور عبد الرحمن بن محمد(ت604هـ/1207م) (ابن الدبيثي،2006، ج4، ص62). ولا شك أن اختيار هؤلاء العلماء من ذوي الكفاءة، ليكونوا قادرين على الإفتاء والتدريس بالمسائل الشرعية بأقوى المذاهب والأقوال. وكانت هذه المدرسة تعرف أيضاً بمدرسة الأصحاب، وقد ذكرها صاحب الحوادث في أحداث 672هـ/1273م عند حديثة عن وفاة أحد مدرسيها وهو نجم الدين محمد بن أبي العز البصري الشافعي(الفوطي،2003، ص266).

وبعد أن اقتصر دور المدارس على تدريس مذهب بعينه في الفترات السابقة كالمذهب الشافعي أو الحنبلي، نجد أن المدرسة التي بنتها زوجة الخليفة المستعصم بالله(640-656هـ/1242-1258م)، الجهة باب بشير التي لم تكن صاحبة مذهب(سبط،1990، ص489)، جمعت تدريس كل المذاهب عندما أوقفت مدرستها على المذاهب الأربعة، حتى أصبحت أقرب إلى المدرسة المستنصرية(القدحات، 2005م. ص284 وما بعدها). ويمكن القول أنه قبل بناء المدرسة المستنصرية، كانت المدارس طائفية، فكانت كل مدرسة تخص مذهب من المذاهب الأربعة، فكانت المدرسة المستنصرية من العوامل التي ساعدت

على التقارب بين المذاهب، والتقليل من الخلاف والتنافس المذهبي، عندما جُعلت هذه المدرسة وقفاً على المذاهب الأربعة(الغساني،1975، ص603). ويقول ابن بطوطة: "الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق، عظيمة الترتيب...وأعظم أسواقها سوق العجبة...في وسط هذا السوق المدرسة النظامية...وفي آخره المدرسة المستنصرية...وبها المذاهب الأربعة، لكل مذهب إيوان في المسجد، وموضع للتدريس"(الغساني،1975، ص609).

وفي الوقت الذي لم نجد لباب بشير ذكر عند ابن الساعي في نساء الخلفاء، أفاض الغساني في الحديث عنها وعن أوقافها، في حوادث سنة652هـ/1254م، وسنة653هـ/1255م، السنة التي أُفتتحت فيها المدرسة، والذي يصفه الغساني أنه كان احتفالاً عظيماً، وقد أعطى حضور الخليفة هذا الاحتفال هيبة وأهمية، إضافة إلى حضور رجال الدولة، والمدرسين ورجال الصوفية(الغساني،1975، ص609). كما أن هذه المدرسة ضمَّت خيرة أهل الخبرة في مجال الفهرسة والإشراف على الكتب؛ فقد تولَّى الشيخ الأديب فخر الدين أبو إسحاق إبراهيم بن حسن البغدادي(ابن الفوطي، 1416.ج2، ص516)، فهرسة المدرسة البشيرية على طريقة حسنة، وذلك سنة714هـ/1314م(ابن الفوطي، 1416هـ، ج2، ص516)، والذي كان شاعراً كاتباً نسخ كتباً كثيراً بخطه الصحيح. بينما تولى خزانة الكتب بالمدرسة البشيرية فخر الدين إبراهيم بن حسن المعروف بابن البواب (ابن الفوطي، 1416هـ، ج2، ص516). وما يميز الجهة باب بشير تنوع أوقافها، فهي التي أوقفت المدرسة البشيرية التي سُميت باسمها، ووقفت داراً للقرآن، ورباطاً للنساء(الغساني، 1975، ص608).

وأصبحت المدارس أقرب إلى مجمع علمي، يضم جميع مذاهب السنة، ولا شك فإن هذه الخطوة، تزيد في التآلف والتلاقي بشكل أكبر بين هذه المذاهب، هذا فضلاً عن مساهمتها في حماية المجتمع من كثير من الأفكار الهدَّامة، سواء كانت المذهبية أو العقائدية، وهذا يفسر أيضاً أنَّ أوقاف المرأة خلال فترة الدراسة اقتصرت على تدريس العلوم الشرعية.

ويبدو أن وقف المدارس على المذاهب الأربعة أصبح شائعاً في فترة الدراسة والأكثر من ذلك أنه كان يتم توثيق ذلك في كتاب الوقف، ونجد عند الغساني توثيقاً للمدرسة التي بنتها باب بشير بوقفية كُتبت في شعبان من سنة652هـ/1254م قبل وفاتها، دون أن يذكر الغساني التفاصيل الكاملة للوقفية، فقد تم استدعاء قاضي القضاة، بحضور نائباه البهر فضلي الشافعي، والحسين ابن اللامغاني الحنفي، وكتب نص الوثيقة بشهادة الخادمين، أيوب الرومي، وريحان الحبشي، اللذين شهدا "أن الجهة العزيزة البشيرية، عتاقة الإمام المستعصم بالله، وأم ولده الأمير أبي نصر محمد، قد وقفت المدرسة المستنجدة المجاورة لدار سوسيان(الذهبي، تاريخ،2003، ج12، ص929. ابن رجب، 1424هـ، ج4، ص138)على المذاهب الأربعة، فكُتب السجل بذلك، وأشهد القضاة من حضر الجلسة ومن العدول، عليه بثبوته عنده، ووضعوا خطوطهم في الكتاب، ثم جعل في كيس وسلم إلى قرنفل المستعصي"(الغساني،1975، ص603. ساعاتي، 1996. ص84). وتمدنا هذه الوقفية بمعطيات كثيرة ليست متعلقة بشكل وموقع المدرسة فحسب، بل تمدنا أيضاً بأسماء شخصيات متنوعة من القضاة والشهود الذين قد لا نجدهم في مصدر آخر.

ومن جهة أخرى رغم أن المصادر سكتت عن إيراد نص الوقفية بشكل كامل، فبحجم هذه المدرسة، من الطبيعي أن نص الوقفية احتوى على تفصيلات تتعلق بسكنات المدرسين، وسكنات الطلبة وجراياتهم، هذا فضلاً عما كانت توفره المدارس الوقفية للطلبة من أدوات التعليم.

افتتحت المدرسة سنة 653هـ/1255م باحتفال كبير حضره الخليفة وأرباب الدولة والمشايخ والمدرسون(ابن الفوطي، 2003، ص222)، وحسب الوقف على المذاهب الأربعة، تم تعيين أقضى القضاة سراج الدين النهرقلي مدرساً لها، إضافة إلى شرف الدين عبدالله محمد ابن أستاذ الدار(ابن الكازروني، 1979. ص434)، وحي الدين ابن الجوزي، ونور الدين محمد ابن المغربي الخوارزمي الحنفي، وعلم الدين أحمد بن الشرمساحي المالكي(ابن الفوطي، 2003، ص222. الذهبي،2003،ج15، ص562،227،143. ابن رجب،1424هـ،ج4، ص190، ج5، 82،59). وفور افتتاح المدرسة سارع العلماء وطلبة العلم إليها دون تمييز لأنها كانت للجميع، ولم تكن مخصصة لطبقة بحد ذاتها، بعد أن وضعت أدوات البحث والتدريس تحت تصرف المدرسين والباحثين.

ويظهر أن هذه المدرسة استمرت في التدريس، والتي أصبحت معلماً من معالم بغداد، وكان مدرسوها من الفقهاء والمحدّثين، إذ يرد عند ابن رجب أن عبد الرحيم ابن عبدالله الزريراتي البغدادي، أحد الفقهاء المشهورين، والذي توفي سنة 741هـ/1340م قد درَّس في المدرسة البشيرية على المذهب الحنبلي(ابن رجب،1424هـ،ج5، ص104).

ولم يقتصر الأمر على بناء المدارس ودورها التعليمي في نشر العلم والمعرفة، بل لعب وقف المرأة دوراً كبيراً في تنمية الحياة الثقافية في المجتمع من خلال بناء المكتبات، وما حوته من توفير أمهات الكتب، التي ساهمت في نشر وتوفير الكتب لطلبة

العلم؛ بعد استقلال المكتبات عن المساجد، بعد إنشاء دور العلم. فقد ساهمت بمجانية التعليم، إذ كان يصعب تفرغ المدرسين والطلاب للتعليم دون تأمين ما يكفيهم من المال وأدوات التعليم، في الوقت الذي كان العديد من الطلبة، وخاصة الفقراء منهم يقف اقتناء الكتب أو توفّرها عائقاً أما تعليمة، بعدما كان اقتناء الكتب حكراً على الأغنياء منهم بسبب ارتفاع ثمنها، ووجود نسخ قليلة يصعب أن تكون بمتناول جميع شرائح الطلبة.

فقد احتوت تربة زمرد خاتون على خزانة كتب، والتي وقفت عليها أوقافاً كثيرة، ويظهر أنها أصبحت نواة لمكتبة عامرة بالكتب، ونواة لمركز تعليمي، ويدخل وقف الكتب ضمن الوقف المشاع الذي يُعتبر جزءاً مكملاً لبناء المكتبة(الطرابلسي،1902،ص122)، ورغم أن المصادر لم تُحدد أعداد الكتب التي تم وقفها على هذه المكتبة، وما ذكرته ليس كافياً لتشييد مكتبة قائمة بذاتها(أبو شامة، 2002م، ص172. ساعاتي،1996، ص114)، أو كما أرادتها زمرد خاتون، والأغلب أن وقف الكتب ما لبث أن أغنى المكتبة، فقد أكثر الفقهاء والعلماء من وقف الكتب والتي لم تذكرها المصادر، هذا فضلاً عن تزويد المكتبة بأعداد كبيرة من قِبل المشرف العام عليها. فمنذ أن أعلن الفقهاء شرعية وقف الكتب، اندفع العلماء إلى وقف كتبهم، طلباً للأجر والثواب، هذا فضلاً عن عدم قدرتهم على بناء مكتبات خاصة بهم، فعندما توفي نجاح الشرابي(ت615هـ/1218م)(الذهبي،2003،ج13، ص452. ابن الأثير،1987، ج10، ص328)في خلافة الناصر لدين الله "وكانت له خمسمائة مجلد فوقفها في تربة أم الخليفة، وكتب عليها اسم الشرابي"(أبو شامة، 2002، ص172. ساعاتي،1996، ص114)، وعلى هذا يمكن القول أن إنشاء هذه المكتبة كان بداية لظهور مكتبات المقابر بهدف ديمومة الصدقة، هذا فضلاً عن الدور الذي لعبته في حفظ الكتب الموقوفة من الضياع والتلف، كما أن ديمومة المكتبات كان مقروناً بمدى ما يوقف عليها من الكتب، ومن جهة أخرى فقد قام هذا النوع من المكتبات بسدّ حاجات العلماء والطلبة، في الوقت الذي كان اقتناء الكتب لدى كثير من فئات المجتمع أمراً بالغ الصعوبة، وغير متاح للكثيرين، بسبب غلاء ثمنها.

وأمرت الجهة باب بشير بإنشاء مكتبة كبيرة بعد إنشاء المدرسة التي بنتها سنة 652هـ/1254م مما أعطاها قيمة وأهمية أكثر، حتى أصبحت المكتبة صفة ملاصقة للمدرسة، على نمط المدرسة النظامية التي ضمَّت إحدى أشهر المكتبات في العالم الإسلامي(ابن الجوزي،1992،ج16، ص276،117). وبذلك يمكن القول أن المدرسة التي أمرت بإنشائها باب بشير اشتملت على مكتبة ثريَّة لخدمة العلماء، حتى أصبحت كتبها تزداد سريعاً من الهبات التي قدَّمها العلماء والمحدّثين والمؤرخين، كوقف لأجود أعمالهم وانتاجهم، "فقد نُقل إليها من الكتب ما حمل على ستة وثلاثين صندوقاً، ونُقل إليها مصحف بخط عثمان بن عفان، ومصحف بخط زين العابدين بن علي، ومصحف بخط ابن البواب"(الغساني،1975، ص609،608).

وقد ارتبطت شهرة هذه المكتبة باحتوائها على كتب نادرة، وهذا يؤكد رغبتها على احتواء المكتبة على الكتب القيّمة ووقفها على المكتبة؛ كما وُقفت عليها وقوفاً كثيرة قبل اكتمال بنائها(ابن الفوطي،2003، ص221)، وترشدنا الروايات التاريخية إلى عناوين احتوتها المكتبة؛ والتي ينبغي أن تكون ثمينة ونادرة؛ منها تفسير أبو الحسن الماوردي(ت450هـ/1058م)(العيون والنكت)، الذي أوقفته الجهة باب بشير قبل وفاتها، وكتبت على المجلد الخامس نص وقفية الكتاب:" هذا ما وقفه وتصدَّق به الجهة الشريفة المكرمة، المقدسة الزكية المعظَّمة، السيدة الكبيرة الرضية الأمينة الرحيمة الرؤوفة النبوية الطاهرة البرة، جهة سيدنا ومولانا الإمام المفترض الطاعة على جميع الأنام، أي أحمد عبدالله بن المعتصم بالله أمير المؤمنين ثبَّت الله دولته، وأعلى كلمته على طلاب العلم، رغبة فيما عند الله من حسن الثواب، وذخراً صالحاً ليوم المآب، وأمرت بأن يكون بالمدرسة الميمونة التي أمرت بإنشائها بظاهر محلة شارع ابن رزق الله، بالجانب لغربي من مدينة السلام، وأن يُعار بالرهن ضامناً للقيمة، فمن بدَّل وقصَّر في حفظه كائناً من كان سواء الخازن أو المستعير أو غيرهما، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه يوم القيامة، فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، إن الله سميع عليم، وكتب في شهر رمضان المبارك سنة 652هـ/1254م"(جواد،1960، ص198. العش، 1991، ص211).

ونجد في نص الوقفية التي حددتها الجهة باب بشير تأكيداً على شرط الإعارة بالرهن، بما يوازي قيمة الكتاب، وفي هذا دلالة على مدى حرصها على المحافظة على الكتبة الموقوفة من التلف أو الضياع، ومن جهة أخرى أن هذه المكتبة كانت تقدم خدمة استعارة الكتب للطلبة والعلماء.

وبعد اكتمال البناء حوت المدرسة عدداً من الكتب النادرة، فقد بادر العديد من العلماء وقف كتبهم خوفاً من الضياع والتلف، أو ربما لعدم قدرتهم على بناء دور خاصة بهم، لذلك بادروا إلى حفظها موقوفه في المدارس والمساجد، فقد احتوت المكتبة على مجموعة من كتب التفسير وكتب التاريخ المختارة؛ وخاصة كتب المفسر عز الدين أبو محمد(ت661هـ/1262م)أحد علماء

التفسير والحديث، الذي أوقف كتابه(رموز الكنوز)، والذي يقع في أربعة مجلدات، والذي يروي في الأحاديث بإسناده، كما أوقف كتاب (مصرع الحسين) الذي كتب فيه عن مقتل الحسين بن علي، ولمكانته أكرمه الخليفة المستنصر بالله(623-640هـ/1226-1242م) (ابن رجب، 1424هـ، ج4، ص138). وهذا يؤكد أن مذهب أهل السنة كان هو الغالب في انتقاء مثل هذه المؤلفات التي تضم الكتب الدينية والتاريخية فقط.

وبعد هذا العرض يمكننا أن نحدد صفات المدارس والمكتبات التي أوقفتها المرأة خلال فترة الدراسة:

- الأولى: أن هذه المدارس أمرت بإنشائها المرأة العباسية، مما يعني عودة الرسوم لدار الخلافة، وبالأخص عودة دور المرأة في تنمية المجتمع البغدادي على الأخص.
- الثانية: اقتصرت أوقاف المرأة من المدارس والمكتبات على بغداد، إذ لم تذكر لنا المصادر، أي من هذه المنشئات في المدن الأخرى، والتي لم تصل أيضاً إلى القرى والأرياف.
- الثالثة أن هذه المؤسسات كانت جميعها سنيَّة المذهب وعلى المذاهب الأربعة.
- الرابعة ارتباط المكتبة بالمدرسة مع وجود مكتبات مستقلة.
- الخامسة كان من المألوف أن يتولَّى صاحب المدرسة تعيين مدرّسها وناظرها.

- **وقف المساجد ودور القرآن:**

لا شك أن المساجد كانت تقوم بالدور التعليمي والثقافي، إلى جانب الدور الديني، إذ لم تكن المساجد مخصصة للعبادة فحسب، بل كانت وجهة ثقافية وعلمية، من خلال حلقات العلم والوعظ والارشاد، وخطب الجمع والمناسبات، هذا فضلاً على ما تحويه من الكتب الشرعية خاصة. إلا أن هذا الدور تقلَّص ببناء المدارس، وخاصة في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، بعد تجربة المدارس النظامية التي أنشأها الوزير السلجوقي نظام الملك.

ورغم ذلك يذكر ابن جبير أن المساجد في بغداد كانت مكاناً لتعليم القرآن لطلبة العلم الذين كانوا يحضرون حلقات العلم وخطبة الجمعة في المسجد، ويشير ابن جبير إلى ذلك عند وصفه لمجلس الشيخ الفقيه ابن الجوزي، الذي كان يكتظ بالحضور من الحنابلة؛ فبعد إلقاء الدرس يتفرغ ابن الجوزي لتعليم الطلبة والحضور القرآن الكريم، وكان لهؤلاء الطلاب ولمقرئيهم مرتبات خاصة(رحلة ابن جبير،د.ت، ص197،198)، وقد بقيت العديد من المساجد قائمة والتي ذكرها نيبور أثناء زيارته لبغداد سنة1766، دون أن يذكر أسماءها(نيبور، 2007، ج2، ص242).

وازدادت مكانة زمرد خاتون في عهد ابنها الناصر لدين الله أكثر من فترة زوجها المستضئ بالله(ت566-575هـ/1170-1180م) حتى أصبحت" نافذة الكلمة مطاعة الأوامر"(ابن كثير،1988، ج16، ص72. ابن الدبيثي،2006،ج3، ص374)، إذ تتحدث المصادر عن دورها في الحياة العامة، ومساهمتها في الوقف، فقد كان لها مساهمة كبير في أعمال البر والخير والصدقات(سبط،1990، ج8، ص333. الذهبي، 2003، ج12، ص1138. ابن تغري بردي، د. ت. ج6، ص182)، خلال الأربع والعشرين سنة التي عاشتها في فترة ابنها الخليفة الناصر لدين الله(المنذري،1984، ج1، ص451. الصفدي،2000، ج14، ص213)، يقول ابن الدبيثي "وكانت كثيرة البر والصدقة، منعمة على الفقراء والأيتام"(ابن الدبيثي،2006 ج5، ص140)، ويقول ابن الكازروني" وكانت راغبة في الخير والصدقة وأفعال البر، ولها من الصدقات والوقوف ببغداد، وغيرها الشيء الكثير"(ابن الكازروني، 1970 ص243)، من خلال تفقدها لبيوت الفقراء والمحتاجين(سبط،1990،ج8، ص333)، إضافة إلى بناء المساجد.

فقد عمَّرت زمرد خاتون مسجداً بمشرعة السقائين(الخطيب البغدادي،2001م.ج8، ص640)على شاطئ دجلة، وأنفقت على هذا المسجد أموالاً كثيرة، وأوقفته للحنابلة، رغم أنها كانت شافعية المذهب، حيث يذكر الأيوبي، أنها عندما بنته قالت: "لا يُصلي فيه إلا رجل حنبلي" (ابن الفوطي، 2003 ص178،179. الذهبي،2003، ج1، ص1138)، ويذكر مصطفى جواد أن هذا الأمر يدل على التسامح الديني(جواد،1960 ص164).

لذلك تم اختيار مُقرئ من الحنابلة، وجُعل إماماً لهذا المسجد. وذكر ابن الدبيثي في ترجمته لأبي حفص عمر بن يوسف المقرئ(ت611هـ/1214م)، أحد علماء القراءات، والذي كان أحد علماء الحنابلة "وأمَّ بالناس في المسجد الذي أنشأته الجهة الشريفة والدة الإمام الناصر لدين الله... سنين إلى حين وفاته"(ابن الدبيثي،2006 ج3، ص361). وذُكر هذا المسجد باسم مسجد الحضائر، ومسجد أمّ الناصر، فقد ذكر مؤلف الحوادث في أحداث 646هـ/1248م "ونبع الماء من أساس حائط المستنصرية،

ومن مسجد الحضائر المعروف بأم الناصر المجاورة لهذه الدار(ابن الفوطي، 2003، ص182). وعُرف هذا المسجد باسم جامع الخفَّافين، أو جامع الصاغةالذي يقع على شاطئ نهر دجلة (الألوسي، 1346هـ، ص42)"وكانت تقام فيه الجمع والأعياد، واحتوى المسجد على خزانة كتب، نالت شهرة كبيرة باحتوائها على مخطوطات العهد القديم، ولكن الكثير منها أصابه التلف بسبب تداول الأيدي عليها(الألوسي، 1346هـ، ص42). ولم يبق من بنائه الأصلي إلا منارته التي تُعد أقدم منارات بغداد(جواد، وسوسه،1958، ص188)، وقد رُممت القبة أكثر من مرة، كان آخرها في عهد الوالي العثماني كاظم باشا(جواد،1960 ص173).

وبقيت زمرد خاتون تعطف على الحنابلة، وترعى مصالحهم طول خلافة زوجها المستضئ بأمر الله، والمدة التي عاشتها من خلافة ابنها الناصر لدين الله، والأكثر من ذلك أنها كانت تحب وعظ وخطب الشيخ ابن الجوزي، شيخ الحنابلة، يقول ابن جبير أثناء رحلته إلى بغداد في وصف مجلس وعظ ابن الجوزي: "ثم شاهدنا مجلساً ثانياً له... بباب بدر في ساحة قصور الخليفة، ومناظره مشرفة عليه، وهذا الموضع المذكور من حرم الخليفة، وخُص بالوصول إليه والتكلم فيه ليسمعه من تلك المناظر الخلفية، ووالدته–أي الناصر لدين الله– ومن حضر من الحرم"رحلة (ابن جبير، د.ت،p198 ,AL-Rudainy, 2014,188).

وتوفيت زمرد خاتون سنة 599هـ/1202م(ابن الأثير،1987، ج10، ص284. ابن كثير، 1988، ج16، ص727. ابن تغري بردي، د.ت، ج6، ص182)، ويصف سبط ابن الجوزي أن حزن الخليفة عليها "لم يحزنه ولد على والده"(سبط،1990، ج8، ص334). كما حزن عليها أهل بغداد "لأنها كانت محسنة إلى الناس" (سبط،1990 ج8، ص334)، وأن أعمالها ساهمت بتشكيل الرأي العام، ولم يقتصر الأمر على أهل بغداد، فهذا الشاعر أبو الخطَّاب الرَّبعي، قدِم بغداد من مصر وألقى الشعر على أمِّ الخليفة في تربتها(ابن الدبيثي،2006، ج1، ص472،450،320،266. ج2، ص78،48).

وأما في مجال دور القرآن تشير المصادر إلى أن الجهة باب بشير أوقفت داراً للقرآن، فبعد أيام من وقفية المدرسة التي أوقفتها، تم استدعاء قاضي القضاة والخادمين، وشهدا بوقفية دار القرآن التي تقع على شاطئ دجلة بالجانب الغربي، وقد جاء في الوقفية "أن واقفة المدرسة المذكورة البشيرية، أشهدتهما على نفسها بوقفية دار القرآن المذكورة، فأمر بكتب سجل الكتب"(الغساني، 1975، ص603). وتم افتتاح هذه الدار في شعبان سنة652هـ1254م(ابن الفوطي،2003، ص212. الغساني، 1975، ص603)، وخصصت لتعليم أبناء الفقراء(ابن الفوطي،2003، ص275. الغساني،1975، ص603)، وبهذه المناسبة أنشد أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد(الغساني، 1975، ص603):

**من ذا رأى فصل الربيع وزهره ورياضه في العشر من تشرين**
**خلعاً مكملة يقارن وشيها ما جاء من مصر ومن جيرون**
**سبعون تشريفاً وما أحصيتها ولربما زادت على السبعين**
**كرم يزيد على البحار مديدها وعلى حيا داني الرباب هتون**

- **وقف الربط**

شاركت أم الخليفة زمرد خاتون أفراد الأسرة العباسية من الخلفاء(ابن الأثير، 1987، ج10، ص125) في بناء الربط، عندما بنت رباط المأمونية(ابن الدبيثي،2006، ج4، ص596)، المجاور لمشهد عبيد الله عليه السلام(ابن الفوطي،2003، ص202)سنة 580هـ/1184م، وقد كانت الربط مراكز علمية، إذ لم تكن مهمة الربط مقتصرة على العبادة والاعتكاف، وإنما كان مركزاً للعلم والثقافة(AL-Rudainy, 2014, p252)عندما ألحقت بها خزائن للكتب، وبالتالي اتخذ العلماء الربط مكاناً للقراءة والمطالعة(القدحات، 2005، ص294). كما قامت الربط بدور اجتماعي إذ كانت مأوى للفقراء وعابري السبيل(ابن الأثير، 1987، ج9، ص314). ومن الأهمية القول أن اختيار هذا المكان لبناء رباط المأمونية لم يكن من قبيل الصدفة، وإنما لأهمية الموقع الذي يحتل موقعاً متميزاً في بغداد.

وساهم رباط المأمونية في تنمية المجتمع، وخاصة من الناحية الثقافية، لما حواه من الكتب التي جعلته محجاً للعديد من العلماء، هذا فضلاً عن إشراف مشاهير العلماء عليه، إذ سرعان ما جمع بين التصوف والعلم، فقصده الطلبة والعلماء، حتى أصبح الرباط تجمُّع صوفي عامر بالفقهاء والعامة ومن تقطَّعت بهم السبل، حتى حظي بمكانة علمية عالية بعد أن ضمَّ جماعة من الفقهاء والمنقطعين(ابن الدبيثي،2006، ج4، ص540)، وخاصة الوجيه النحوي، المبارك بن المبارك(ت585هـ/1189م)، الذي حضر إلى دار الكتب برباط المأمونية، في الوقت الذي كان خازن الكتب يومئذ أبو المعالي أحمد بن هبة الله (ت625هـ/1227م)( الحموي،1993، ج5، ص2266)، الذي كان يتولى الاشراف على الكتب وفهرستها وحفظها، فقد كان يتولى

هذه المهمة من خيرة أهل الخبرة، في الوقت الذي سكتت فيه المصادر عن الحديث عن باقي القائمين على هذه المكتبة من الفرَّاشين والورَّاقين والنسَّاخ وغيرهم، وبالتالي يمكن القول أن أهمية المكتبة أيضاً جاءت من الشخصيات التي كانت تشرف عليها، كأبي المعالي خازن الكتب.

ولا بد من الإشارة إلى أن مهمة خازن المكتبة، ترميم الكتب وإصلاحها، وإعلام ناظر الوقف الذي يعينه الواقف ما يلزم المكتبة من الكتب، هذا فضلاً عما يترتب من أعمال الصيانة والترميم للبناء، ولم يكن يقبل الهبات من الكتب دون فحص، وهناك قصة ظريفة جرى فيها الحديث عن المعري بين الوجيه النحوي الذي كان يتردَّد على المكتبة، وبين خازن الكتب أبو المعالي، والتي وردت في معجم الأدباء، حيث يذكر ياقوت الحموي أنه "عندما جاء حديث المعري، ذمَّه الخازن، وقال: كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته(أتلفته)، فقال الوجيه: وأي شيء كان هذا الكتاب؟ قال: كان كتاب نقض القرآن، فقال أخطأت في غسله، واستشاط أبو المعالي والجماعة الحضور، وقالوا له: مثلك ينهى عن مثل هذا؟ قال نعم، لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن، أو خيراً منه أو دونه. فإن كان كذلك وحاش لله، فلا يجب أن يُفرَّط في مثله، وإذا كان دونه فتركه معجزة للقرآن، فلا يجب التفريط فيه، فاستحسن الجماعة قوله، ووافق ابن هبة الله على الحق وسكت"(الحموي،1993، ج5، ص2266).

ولا شك أن هذه الرواية تدفعنا إلى التوقف عند ما فعله الخازن، ويبدو أن ما قام به كان حرصاً منه على عدم احتواء المكتبة على أي كتاب يحمل صبغة مذهبية أو طائفية، لذلك كان يصدر الحكم عليها بالإتلاف أو الحرق، وهذا يقودنا إلى القول أن المؤسسات الوقفية رغم استقلاليتها بوجود ناظر الوقف، إلا أنا كانت تُعتبر مؤسسات شبه رسمية، تسير وراء السياسة العامة للدولة.

ولا بد من الإشارة إلى أن الشهرة التي نالها بعض الشيوخ من رجال الدين والتصوف، ساهمت إلى حدٍ كبير في أن يقوم الرباط بدوره، وخاصة أن رباط المأمونية، ضم الفقيه أبو الحسن الخيَّاط الصوفي، علي بن المظفر بن أحمد(ت598هـ/1201م)، الذي أقام إقامة دائمة في هذا الرباط(ابن الدبيثي،2006، ج4، ص540)، هذا فضلاً على أن رباط المأمونية كان ملتقىً للعلماء، فقد زاره أبو محمد الصوفي، عمر بن محمد بن أبي الجيش(ت597هـ/1200م)، الذي التقاه ابن الدبيثي في هذا الرباط عندما قدم بغداد من همذان، وسأله ابن الدبيثي عن علماء همذان(ابن الدبيثي،2006، ج4، ص345). وهذا أبو المكارم البَندَنيجي، المعروف بابن بُصلا(ت602هـ/1205م)، الذي كان مشتغلاً بالعلم وكان فقيهاً بالمذهب الشافعي، فقد كان يجد ضالته من الكتب في هذا الرباط الذي كان يتردد عليه كثيراً(ابن الدبيثي،2006، ج4، ص596). ومن الذين أقاموا في هذا الرباط، أبو العلاء اليَمَني، محمد بن علي الصوفي(ت609هـ/1212) (ابن الدبيثي،2006، ج1، ص522).

ولم يكن حرجاً لبعض الفقهاء الانتقال من مذهب لآخر بُغية الحصول على فرصة في التدريس، أو الاشراف على المدرسة وأوقافها، فهذا أبو المبارك الملقَّب بالوجيه النحوي الحنفي(ت585هـ/1189م)لم يجد حرجاً من أجل الفوز بالتدريس بالمدرسة النظامية الانتقال من المذهب الحنبلي إلى المذهب الشافعي(السبكي، د.ت، ج7، ص374 ابن كثير، 1988، ج13، ص43)، وهذا جعله أيضا يشرف على رباط المأمونية الذي بنته زمرد خاتون لنشر المذهب الشافعي.

ونتيجة لوجود هذه الثلَّة من العلماء والمتخصصين في الإشراف على المكتبات، فقد شهد الرباط تكوين مكتبة عامرة بالكتب في مختلف العلوم الشرعية المختلفة؛ ووجود العديد من الكتب القيّمة الموقوفة يوحي بأهمية هذا الرباط، فقد ضم رباط المأمونية مكتبة احتوت على العديد من الكتب المهمة، منها كتاب(الفنون) وكتاب (الفصول) لابن عقيل(ت513هـ/1119م)، وكتاب الفنون من الكتب المهمة والكبيرة كما ذكره صاحب التراتيب، فهو يقع في مائتي مجلد، فيه "حكايات ومناظرات وغرائب وعجائب"، وقد ذكر سبط ابن الجوزي أنه قرأ منها في وقف المأمونية نحو سبعين جزءاً(الكتاني، د.ت. ج2، ص132). وكان أحد تلاميذ ابن عقيل، وهو عبدالله بن المبارك المعروف بابن نبال(ت528هـ/113م)، قد وقفه على المسلمين، وكان رجلاً خيِّراً من أهل السنة "باع ملكاً له واشترى كتاب الفنون وكتاب الفصول لابن عقيل ووقفهما على المسلمين"(ابن الجوزي،1992، ج17، ص287. ابن العماد، 1986. ج7، ص360.ج6، ص140). دون أن يُحدد ابن الجوزي المكان الذي وُقف عليه، ويبدو أن هذا الكتاب قد وصل إلى رباط المأمونية عن طريق أحد العلماء أو الأمراء، الذين وقفوا بعض كتبهم في هذا الرباط، وليس أن ابن نبال قد وقفه على رباط المأمونية كما يذكر يوسف العش(العش،1991، ص215)؛ لأن وفاة ابن نبال كانت سنة(ت528هـ/113م)، ورباط المأمونية بُني بعد هذا التاريخ بحوالي نصف قرن.

كما ضم رباط المأمونية العديد من كتب الفقيه والنحوي أبو محمد عبدالله بن أحمد الخشاب(ت567هـ/1171) الذي كان "أوحد زمانه وفريد أوانه" كما وصفه ياقوت الحموي(الحموي، 1993، ج4، ص1496)، فقد كان شغوفاً بامتلاك الكتب، ويمتلك مكتبة

كبيرة(الحموي،1993، ج4، ص1505)، فلما مرض أُشهد عليه بوقف كتبه، فتفرقت وبيع أكثرها بعد وفاته، ولم يبقَ إلا عشرها، فتركت بعد وفاته وقفاً في رباط المأمونية(الذهبي،2006،ج15، ص231. الصفدي، 2000، ج17، ص11).

ولكثرة النساء المتصوفات في بغداد، اهتمت المرأة خلال هذه الفترة ببناء الربط للنساء المتصوفات، ويبدو أن انتشار التصوف بين النساء في بغداد في تلك المرحلة، شجع أيضاً الخلفاء على بناء ربط خاصة بهن، وأصبح تقليداً اتبعه الخلفاء في العصر العباسي الأخير، فقد بنى الخليفة الناصر لدين الله سنة 585هـ/1189م دار الفَلَك(الأيوبي،1401هـ، ص176،175)"ورتَّب عليها ابنة السيد العلوي(ت594هـ/1197م) (سبط، 1990،ج8، ص256). ووقف الخليفة المستعصم بالله دار الشط، أحد ربط الجانب الغربي من بغداد، وهو رباط للصوفية بناه الخليفة المستعصم(الكيلاني، 2014، ص33)المجاور لدار الفَلَك "وجُعلت رباطاً للنساء، وجُعلت شيخته الشريفة بنت المهدي"(ابن الفوطي،2003، ص211). وبالتالي كان الهدف الجامع من إنشاء هذه الربط التأكيد على السنَّة، ورفض الخروج عنها.

ولم تقتصر مساهمة المرأة في الوقف على نساء الخلفاء، فهذه العالِمة شُهْدة الإبرية(ت574هـ/1178م) بنت رباطاً على شاكلة النساء الموسرات، وأوقفت على الرباط أوقافاً للإنفاق عليه وديمومته، والذي استقطب العديد من مشاهير الصوفية من بغداد ومن خارجها، بعد أن أوكلت مهمه خدمة الصوفية فيه إلى الفقيه الشافعي، أبو المظفر عبدالله بن خميس، الذي قَدِم بغداد من أذربيجان، والذي كان عالماً بمسائل الخلاف والمذاهب(ابن الدبيثي،2006، ج3، ص456)، وكان من المعتاد حضور النساء إلى الربط وبأعداد كبيرة، لسماع حلقات العلماء والفقهاء( p18AL-Rudainy, 2014,) ولم يعد هذا الرباط مجرد مركز للوعظ الديني والتربية الصوفية، بل أضحى مؤسسة دينية تقوم بمهمة التدريس للطلبة الذين أمُّوا هذا الرباط، هذا فضلاً عن دوره في الحياة الاجتماعية، من خلال خدمة تقديم الطعام، ليس لرواد الرباط فحسب، بل لعامة المجتمع.

ومن النساء اللواتي كان لهن مساهمة في الوقف الواعظة ضوء الصباح بنت المبارك الأنصاري(ت585هـ/1189م)، ابنة المحدِّث أبي بكر بن المبارك الخفاف(ت613هـ/1216م) (الذهبي،2003،ج13، ص372)، يصفها الصفدي "بأنها كانت فاضلة صادقة صالحة حافظة لكتاب الله"، بنت رباطاً كانت تعقد فيه مجلس وعظ(الصفدي،2000، ج16، ص214)، ويبدو أن هذا الأمر كان مألوفاً في الدولة العباسية وجود نساء كان لهن مكانة في مسألة الوعظ(AL-Rudainy, 2014, p186) ولاسيما أنهن امتلكن دراية جيدة بعلوم الفقه والدين(AL-Rudainy, 2014, p190)، حتى أصبحت الحركة الصوفية جزءاً من التركيبة الاجتماعية والمؤسسية التي جمعتها الربط، ويتم اللجوء إليها تفادياً لأي خلاف، وحسماً لأي صراع.

ولاسيما أن دار الخلافة كانت تشجع على نشر المذهب السني من خلال إنشاء المدارس السنية، وإنشاء الربط للصوفيين، ومرد ذلك إلى منع انتشار التشيع، وخاصة أن الغساني يذكر أنه في زمن الخليفة الناصر لدين الله "ظهر الرفض بسبب ابن الصاحب، فلما هلك ابن الصاحب مات الرفض"(الغساني،1975، ص462). لذلك حظي رجال الصوفية بمكانة كبيرة في تلك الفترة، وكانوا يحضرون المناسبات مع كبار رجال الدولة والفقهاء والقضاة، عندما دعاهم الخليفة المستنصر لحضور افتتاح المدرسة المستنصرية سنة623هـ/1226م(الغساني،1975، ص462. ابن الفوطي،2003، ص59). وكانت مهمة الرجال الصوفيين تقوم على وعظ العامة والعناية بحاجاتهم(متز، 1967م،ج1، ص443)، إذ استطاعت الحركة الصوفية التكيف مع البيئة الاجتماعية، من خلال التغلغل في أعماق الحياة الشعبية، والتأثير على المستوى الاجتماعي والمذهبي، لذلك اهتم الخلفاء بنشر هذا المذهب من خلال مأسسته بإنشاء الربط، حتى صار التصوف المناخ الذي يتنفس منه الجميع، والمظلة التي يستظل بها الخاصة والعامة، لذلك سخَر الناصر لدين الله الفرق الصوفية لخدمته عن طريق تنظيمها(بروكلمان، 1968، ص379)، ولاسيما أنها كانت على اتصال مباشر بنظام الفتوة الذي أعاد تكوينه الخليفة الناصر لدين الله، لمواجهة حركات العيارين، والقضاء على الاختلافات بين السنة والشيعة، ابن الساعي،1934،ج9، ص221وما بعدها. ابن الجوزي، 1992،ج16، ص211. ابن كثير، 1988،ج13، ص42. وانظر، الفتوة والخليفة الناصر لدين الله، 1955. ص187–204 (Muir, 1915,p180-186)، ولم تعد مهمة شيخ الرباط التدريس فحسب، بل كان يقوم أيضاً بحثّ الأهالي والعامة، ويَعِضهم بأمور الدين والعقيدة، ويجيب على العديد من الإشكالات التي يثيرونها، وبالتالي يمكننا القول أن دار الخلافة أرادت أن تكون هذه الربط نماذج أخلاقية(Koscielniak,2010,p15).

ولم يقتصر دور المرأة على تنمية المجتمع من الناحية الثقافية، بل تعدى ذلك إلى المساهمة في خدمة المجتمع البغدادي من خلال بناء وتشييد المعالم العمرانية والحضارية، كالمدارس والمساجد والربط، والتي ساهمت في إضافة معطيات جديدة عن مدينة بغداد بقي يذكرها كل من زارها، وخاصة الرحالة الذين وثَّقوا لهذه الأعمال(رحلة ابن جبير، د.ت ص198،197).

وبعد هذا العرض يمكن إجمال مجموعة من الشرائح التي استفادت من المؤسسات العلمية التي أوقفتها المرأة في هذه المدة الزمنية:

- الأولى: شريحة العلماء الذين تولوا التدريس أو الخطابة في المدارس، والمساجد التي أوقفتها المرأة، والتي كانت تؤمن لهم الدخل، والمسكن.
- الثانية: الطلبة الذين استفادوا من بناء المدارس، وتلقوا صنوف العلوم الشرعية، مع ما توفر لهم من المسكن والجرايات، وتأمين مستلزمات التعليم.
- الثالثة: شريحة العلماء والغرباء وعابري السبيل الذين كانت لهم الربط والمدارس ملجأ، ومكاناً للسكن عند قدومهم بغداد.
- الرابعة: شملت المؤسسات التعليمة شريحة واسعة من العلماء وطلبة العلم، ولاسيما أن معظمها لم يُخصص لمذهب بعينة، بل كانت تدرس العلوم الشرعية على المذاهب الأربعة.

- **المرافق العامة على طرق الحج:**

لم يقتصر وقف المرأة خلال فترة الدراسة على بناء المؤسسات العلمية، فقد كان لها مساهمة فاعلة في طريق الحج، وفي بلاد الحرمين(AL-Rudainy,2014 p,259)، ولاعتبارات سياسة ودينية كانت دار الخلافة حريصة كل الحرص على تأمين سلامة الحجاج، ويمكن اعتبارها من المهام التي ترتبط بها هيبة الدولة.

وقد برزت في عهد الخليفة الناصر لدين الله زوجته سلجوقة خاتون، والتي وردت في بعض المصادر باسم الخلاطيّة(الحموي،1993،ج5، ص2262. الصفدي، 2000، ج15، ص296. الغساني، 1975، ص277)، التي تميزت عن باقي نساء الخلفاء في فترة الدراسة، أنها كانت من الأسرة السلجوقية الحاكمة، وليس من الجواري، فهي بنت السلطان قلج أرسلان بن مسعود ملك الروم(ابن الساعي، د.ت، ص115. الذهبي،2003، ج12، ص669). لذلك وصفها ابن جبير بأنها كانت عظيمة القدر(رحلة ابن جبير، د.ت، ص161)،"المترفة شباباً ومُلكاً"(رحلة ابن جبير، د.ت، ص206)، ويصفها ابن الكازروني بأنها: "كانت صالحة محبة لأفعال البر والقرب"(ابن الكازروني، 1970، ص247).

والظاهر أنها كانت ذات مكانة، تعيش في رغد العيش، ويتضح ذلك من وصف ابن جبير في رحلته، بعد أن عاد من الحج في موسم 579هـ/1183م في صحبة قافلة الحج العراقية(البيهقي، د.ت. ص 71. تاريخ. ابن الأثير، 1987، جـ 6، ص 341)وكانت قافلة الحج الخراسانية(الأثير، 1987، ج6، ص 341)تحت إمرة سلجوق خاتون هذه، قبل أن يتزوجها الخليفة الناصر لدين الله، يقول ابن جبير: "واتفق رحيلنا من بغداد إلى الموصل... ونحن في صحبة الخاتونين: خاتون بنت مسعود المتقدمة الذكر في هذا التقييد، وخاتون أم عز الدين صاحب الموصل... وهاتان الخاتونان هما أميرتا هذا العسكر الذي توجهنا فيه وقائدتاه". ويظهر أن ابن جبير لم يكن متقبلاً لإمرة الخاتونين لقافلة الحج، وخاصة إمرة الحج كانت مقتصرة على الرجال(زامباور،1951، ص30)، لذلك قال متندراً :"والله لا يجعلنا تحت قول القائل: ضاع الرعيل ومن يقوده""(رحلة ابن جبير، د.ت، ص206).

ومهما يكن من أمر فقد كان لسلجوقة خاتون مآثر كثيرة في الحج، يقول ابن جبير: "ولخاتون هذه أفعال من البرّ كثير في طريق الحاج، منها سقي الماء للسبيل، عينت لذلك نحو الثلاثين ناضِحة(الدابة التي يُستقى عليها. المعجم الوسيط، 2004، ج2، ص928)، ومثلها للزاد، واستجلبت لما تختص به من الكسوة والأزْودة وغير ذلك نحو المئة بعير""(رحلة ابن جبير، د.ت، ص162)، وجلبت معها إلى المدينة حملين من المتاع للصدقة"(رحلة ابن جبير، د.ت، ص177)، ولها في كل عام إذا لم تحج بنفسها "تواضح مسبَّلة مع الحاج تُرسلها مع ثُقات يسقون أبناء السبيل في المواضع المعروف فيها الماء، وفي الطريق كله، وبعرفات، وبالمسجد الحرام، في كل يوم وليلة...فتسمع المنادي على النواضح يرفع صوته بالماء للسبيل، فيُهْطِع إليه المُرمِلون(الذين نفذ زادهم)من الزاد والماء بِقِرَبِهم وأباريقهم فيملؤونها"(رحلة ابن جبير، د.ت، ص164).

ولم يُكتب لسلجوقة خاتون العيش مع الخليفة الناصر لدين الله إلا عامين فقط، فقد توفيت سنة 584هـ/1188م(ابن الساعي، (د.ت)، ص118. ابن الأثير، 1987، ج10، ص179. الصفدي، 2000، ج15، ص296. الغساني، 1975، ص205)، وقد رثاها سبط التعاويذي في ديوانه بقصيدة طويلة مطلعها(ديوان سبط، 1903، ص222–225)(الطويل):

**قفوا تعجَّبوا من سوء حالي ومن ضرّي فَمِن زَفْرةٍ تَرْقى وَمِن دَمعةٍ تجري**
**لئن غادَرت قصر الخلافة موحشاً فكائِن لها في جَنَّة الخُلد من قصر**
**فيا قبر ما بين الصَّراة ودجلةٍ إلى نهر عيسى جَادَك الغيث من قبر**

**رَثيناك يا خير النساء تَعبُّداً ومثلك لا يُرثى بنظم ولا نثرِ**

وحضر من البصرة سنة584هـ/1188م أبو سعد الواعظ، محمد بن محمد بن أحمد بن الرِّياحي، الذي جلس للوعظ بتربتها، ثم عاد إلى بلده(ابن الدبيثي، 2006، ج2، ص56). ورغم المدة القصيرة التي عاشتها سلجوقة خاتون في خلافة الناصر لدين الله، والتي لم تمهلها حتى اكتمال تربتها التي بنتها لنفسها "فقد توفيت قبل فراغ العمارة"(الصفدي، 2000، ج15، ص596. الذهبي، 2003 ج12، ص777)، التي أمرت ببنائها إلى جانب مشهد عون ومعين ولدي علي عليه السلام بالجانب الغربي من مشرعة الكرخ(ابن الساعي، د.ت، ص117)، وقد ذكر ابن الساعي في تاريخه في أحداث 605هـ/1208م "في المحرم منها تقدم الناصر لدين الله ببناء دار الضيافة لوفد الله تعالى بالجانب الغربي، فبنيت على دجلة بالقرب من تربة الجهة الشريفة السلجوقية مجاور مشهد عون ومعين وتكامل بناؤها في آخره"(ابن الساعي، 2010، ص255).

وبرز دور المرأة في طريق الحج بصورة أكبر عند أم الخليفة زمرد خاتون، ويذكر صاحب التكملة أنها: "حجَّت ووقفت المدارس والربط والجوامع، ولها وقوف كثيرة في القربات، ونفقت في الحج نحو من ثلاثة مائة ألف دينار"(المنذري، 1984،ج1، ص451. الذهبي، 2003 ، ج12، ص1167. الصفدي، 2000، ج14، ص213)، وكان معها نحو من ألفي جمل، محملة بالصدقات لأهل الحرمين الذين تصدقت عليهم أموالاً كثيرة(سبط، 1990، ج8، ص333).

ورغم أن هذا المبلغ لا يقارن بما كانت تنفقه أمهات وزوجات الخلفاء في العصور العباسية الأولى، إلا أنه يعتبر تحولاً كبيراً في عودة نشاط المرأة العباسية في هذه الفترة، ومساهمتها الفاعلة في أعمال الوقف بشكل عام، وفي الإنفاق على بلاد الحرمين، ويتضح ذلك بما قامت به زمرد خاتون عندما سارت على درب نساء الخلفاء العباسيين الأوائل في حجتها الوحيدة(ابن تغري بردي، د.ت، ج6، ص182)، بإصلاح البرك والمصانع(ما يجمع فيه ماء المطر كالحوض لتأمين سبل الماء وأماكن الراحة)(ابن الأثير، 1987، ج5، ص 247. ابن كثير، 1988، ج 13، ص 523)، وإصلاح طريق الحج(سبط، 1990، ج8، ص333. ابن كثير، 1988، ج16، ص726. ابن تغري بردي، د.ت، ج6، ص182)، وكان لها سبيل بطريق مكة(ابن الدبيثي، 2006، ج5، ص290). وتتضح أهمية أوقافها وكثرتها، عندما يذكر ابن الدبيثي في ترجمته لأبي السعادات بن أبي القاسم، محمد بن علي بن أحمد(ت613هـ/1216م)، الذي كان أحد التجار البارزين "وقد جَعَلت إليه النظر في أوقافها على الربط والمدارس والتربة والسبل والصدقات"(ابن الدبيثي، 2006، ج1، ص527). ولا شك أن دار الخلافة كانت تشجع مثل هذه الأوقاف على طريق الحج، وفي بلاد الحرمين، وتأمين كل متطلبات السلامة العامة، والخدمات الاجتماعية، ولاسيما أن قافلة الحج لم تكن قافلة دينية فحسب، بل كانت قافلة تجارية، لذلك فإن طريق الحج كان يُعتبر من أهم طرق التجارة للدولة، وتسعى دائماً لتأمين سبل الأمن، وتُشجع على توفير الخدمات، وخاصة سُبل الماء.

ولم تقتصر أوقاف زمرد خاتون على طريق الحج ومكة، بل كان لها مساهمات وقفية في المدينة المنورة، عند أوقفت السقايات في المسجد النبوي، يقول ابن النجار "وعملت الجهة أم الخليفة الناصر لدين الله في مؤخرة المسجد سقايات كبيرة، فيها عدة من البيوت، وحفرت لها بئراً، وفتحت لها باباً في الحائط الذي يلي الشام..."(ابن النجار، 1996، ص168). وتذكر المصادر أن زمرد خاتون عمَّرت المسجد الحرام وفرشته(الفاسي، 2000، ج1، ص302)"وذلك بعد أن أصاب المسجد الشعث والخراب، وبعد أن سقط كثير من سقوفه"، وبعد الانتهاء من عمارته كُتب اسمها على بابه الكبير(الفاسي، 2000، ج1، ص353). كما بنت على قبر حمزة رضي الله عنه مشهداً كبيراً، وجعلت عليه "باباً من الساج منقوش، وعلى المشهد باب من حديد..."(ابن النجار، 1996، ص73. الفاسي، 2000، ج2، ص413).

وفي مجال بناء الربط لم تدخر أم الخليفة جهداً في بناء رباطاً في المدينة سنة579هـ/1183م عُرف بالعطيفية(نسبة إلى الشريفة عطيفة التي سكنت هذا الرباط)(الفاسي، 2000، ج1، ص431)، وقد بنته ووقفته على "الفقراء والصوفية ذوي التقى والعبادة والعفاف والزهادة والصلاح"(الفاسي، 2000، ج1، ص431). وبدون شك فإن هذا الرباط كباقي الربط كان يقدم خدمات تعليمية واجتماعية للمنقطعين والفقراء ممن يسكنون حول المدينة.

وشهدت المدة الزمنية الخليفة المستنصر باللّه تطوراً في بناء المدارس والمساهمة في أعمال الخير، مما شجع النساء في عهده على المشاركة في أعمال الوقف، يقول صاحب الفخري "وله الآثار الجليلة، منها وهي أعظمها المستنصرية... ومنها خان حربي وقنطرتها وخان نهر سابس بأعمال واسط، وخان الخرنيني، وغير ذلك من المساجد والربط ودور الضيافات"(ابن الطقطقا، 1966، ص330).

ولذلك ساهمت السيدة هاجر إحدى حظايا الخليفة المستنصر بالله، والتي أعتقها بعد أن ولدت له ابنه أحمد، الذي تولى

الخلافة فيما بعد باسم المستعصم بالله(640-656هـ/1242-1258م)، آخر خلفاء الدولة العباسية، ساهمت السيدة هاجر بأعمال البر والصدقات، وكانت محسنة للفقراء(ابن الفوطي، 1416هـ، ص179)، ويصفها ابن الكازروني بأنها كانت صالحة ديِّنة كريمة كثيرة البر والعطاء(ابن الكازروني، 1970، ص266). وقد حجَّت في زمن ولدها المستعصم(ابن الكازروني، 1970، ص266)سنة641هـ/1243م، وتصدَّقت ووقفت أموالاً كثيرة(ابن الفوطي، 1416هـ، ص179). وقد كان لها سبيل في طريق الحج، للإنفاق على فقراء الحجاج والمنقطعين، يُحمل إليهم فيه الماء ومستلزماتهم من المؤن والطعام(جواد، 1960، ص189).

ورغم أن المصادر لم تتوسع في الحديث عن أعمال السيدة هاجر ومكانتها، إلا أن ما ذكره صاحب الحوادث يبن لنا ما كان لها من مكانة، ولاسيما زمن ابنها الخليفة المستعصم، وذلك بالحديث عن الأبهة التي أُستقبلت بها عند قدومها من الحج وعن أعطياتها، التي بدأت قبل وصولها بغداد، ويذكر صاحب الحوادث في أحداث 642هـ/1244م مراسم استقبال أم الخليفة في واقصة على طريق مكة، إذْ يقول: "تقدَّم شرف الدين إقبال الشرابي(ابن كثير، ،1988، ج17، ص264)إلى وكيله عز الدين حسين بن عبدوس(الفوطي، 416هـ، ج1، ص162)بالمسير إلى واقصة، ليلقى والدة الخليفة المستعصم عند عودها من مكة، وأنفذ معه تسعين جملاً عليها تشريفات وحلواء وغير ذلك"(ابن الفوطي، 1416هـ، ص148).

واستمرت تشريفات استقبال أم الخليفة حتى دخولها بغداد، فقد خرجت حاشية دار الخلافة لاستقبالها، يقول صاحب الحوادث: "فخرجوا- أرباب الدولة- ما عدا نصر الدين أحمد بن الناقد لعجزه عن الخروج بسبب مرضه، فساروا إلى زريران(بينها وبين بغداد سبعة فراسخ على جادّة الحاج إذا أرادوا الكوفة من بغداد)(الحموي، 1977،ج3، ص140) فوجدوا السرادقات بها، فكان كل جماعة ينزل على بعد، ويستأذن في الحضور فيؤذن له، فإذا حضر قبَّل الأرض بباب السرادق، فيخرج أمين الدين كافور الظاهري(ت654هـ/1256م)(الذهبي، 2006، ج23، ص370. الغساني، 1975، ص621)، ويقول له: قد عرفت خدمتك... ويأذن له في العود، ونزلت والدة الخليفة في الشبارة(نوع من المراكب النهرية)وأُصِعدت إلى بغداد بعد أن خلعت على الأمير مجاهد الدين أيبك الدويدار أمير الحاج، وأمرت له بخمسة عشر ألف دينار، وعلى حسن الدين قيران، وأمرت له بألف دينار...وخلع على كل من كان في خدمتها من النواب والأتباع والفرَّاشين والمحفدارية (نسبة إلى المِحَفَّة وتعني الهودج الذي لا قبَّة له، والمحفدارية كانوا يرافقون قافلة الحج لحمل هذا السرير الذي يجلس عليه الأميرات وذوي المكانة العالية) (ابن الأثير، 1987، ج10، ص45. ابن كثير، البداية، 1988، ج12، ص163. الكردي، 2016، ص106)والجمَّالين والسائقين والحداة والساقة والنفاطين والحراس..."(ابن الفوطي، 1416هـ، ص149. وانظر، الذهبي، 2003،ج14، 347).

ولما بُويع المستنصر بالله بالخلافة، أُهديت له الجارية شاهان مع جملة من الجواري، وبسبب فطنتها وذكائها، تميَّزت شاهان عن غيرها من الجواري، حتى أصبح لها مكانة ومنزلة كبيرة عند الخليفة(ابن الساعي، د.ت، ص120)، حتى يذكر صاحب العسجد في أحداث652هـ/1254م، أنه كان لها: "باب وديوان ووكلاء، وحكمت في الديوان، وأقطعت القرى والعقارات السنية"، هذا فضلاً عن مساهماتها في طريق الحج وبلاد الحرمين(الغساني، 1975، ص599)، ويضيف ابن الساعي أنه كان لها نوَّاب وخدم وحاشية "وأُمرِجَت في الأموال تتصرَّف فيها على حسب إيثارها واختيارها"(ابن الساعي، د.ت، ص120)، ولا شك أن هذا الوضع فتح لها المجال للمشاركة في أعمال البر والوقف، حتى أقطعت كثيراً من القرى والعقارات(الغساني، 1975، ص599)، فقد "كانت كثيرة البر والمعروف والتفقد للفقراء والأرامل والأيتام، دائمة الصدقات، مائلة إلى الخير، راغبة في فعله، محبة لأهلة"(ابن الساعي، د.ت، ص120،121).

ولا شك أن مثل هذه الأوقاف ساهمت بشكل كبير في توفير المرافق والخدمات المختلفة للحجاج، والتجار، مما جعل طريق الحج أكثر يسراً وسهولة، خاصة بعد أن تعرضت الكثير من المرافق التي بُنيت على طريق الحج للاعتداء، وردم سبل الماء من قبل العابثين وقطاع الطرق الذين كانوا يتعرضون لقوافل الحج(الفوطي، 1416هـ، ص185. الغساني، 1975، ص338).

**خاتمة:**

- عاد دور المرأة العباسية في الحياة العامة والوقف، إلى دار الخلافة العباسية، بعد استقلالها عن سيطرة العناصر الأجنبية، ولاسيما البويهية والسلجوقية، وذلك في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وازداد هذا الدور مع بداية خلافة الناصر لدين الله، الذي أنهى سيطرة السلاجقة، وهدم دار السلطنة السلجوقية، إيذاناً بانتهاء نفوذهم وسيطرتهم على دار الخلافة.
- اعتاد المجتمع البغدادي على وجود الجواري في قصور الخلفاء، وهن زوجات وأمهات الخلفاء، وهؤلاء الجواري هن من

ساهمن في أعمال الوقف في تلك المدة الزمنية، والذي اقتصر على الوقف الخيري، من خلال بناء المؤسسات العلمية، هذا فضلاً عن بناء الجسور وسبل الماء في طريق مكة، ويمكن القول أن أوقاف المرأة في مدة الدراسة كانت أوقافاً تقليدية، وسادت في الفترات الماضية، وتكاد تكون قد اقتصرت على الأوقاف الدينية والتعليمية، في الوقت الذي افتقدت فيه إلى الوقف الصحي مثلاً.

– ساهمت أوقاف النساء في هذه المدة الزمنية في إحداث نهضة علمية وفكرية في بغداد، وساهمت في إحداث نهضة تنموية في المجتمع، بعدما أصبحت المجالس والدروس العلمية التي تُعقد في تلك المؤسسات، معلماً حضارياً وثقافياً في مدينة بغداد، وقد جسَّد هذا ابن جبير في رحلته لبغداد، عند حديثة وبشكل مطوَّل عن هذه المجالس. كما ساهمت هذه الأوقاف في إضافة معطيات حضارية ومعمارية جديدة لمدينة بغداد، من مدارس ومساجد وجسور وقباب، بقيت بعضها معلماً حضارياً إلى فترات متأخرة من الحكم العثماني.

– سارت المدارس الوقفية على نمط المدرسة المستنصرية، بوقفها على المذاهب الأربعة بهدف التقليل من عوامل الخلاف والتنافس المذهبي، ليسود الوئام والتآلف بين هذه المذاهب، الأمر الذي ينعكس على تماسك المجتمع العباسي.

## المصادر والمراجع


**أولاً: المصادر الأولية**

ابن الأثير(1987) أبو الحسن علي(ت630هـ/1232م)، **الكامل في التاريخ**، 11 جزء، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن الجوزي(1342هـ)أبي الفرج عبد الرحمن بن علي(ت597هـ/1200م)، **مناقب بغداد**، تحقيق: محمد بهجة الأثري البغدادي، بغداد، مطبعة دار السلام.

ابن الجوزي(1992)أبي الفرج عبد الرحمن بن علي(ت597هـ/1200م)، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**. 19 جزء، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن الدبيثي(2006م)أبي عبدالله محمد بن سعيد(ت637هـ/1239م)، **ذيل تاريخ مدينة السلام**، ط1، 4 أجزاء، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي.

ابن الدبيثي(1951)محمد بن سعيد بن محمد(ت637هـ/1239م)، **المختصر المحتاج إليه من تأريخ ابن الدبيثي**، تحقيق: مصطفى جواد، بغداد، دار المعارف.

ابن الساعي(1209هـ) تاج الدين علي بن أنجب البغدادي(ت674هـ/1275م)، **مختصر أخبار الخلفاء**، مصر، المطبعة الأميرية ببولاق.

ابن الساعي(2010)تاج الدين علي بن أنجب البغدادي(ت674هـ/1275م)، **تاريخ ابن الساعي**، تحقيق: محمد القدحات، عمان، دار الفاروق للنشر والتوزيع.

ابن الساعي(2014) تاج الدين علي بن أنجب بن عبيدالله(ت674هـ/1275م)**المقابر المشهورة**، ط1، تحقيق، إحسان الثامري، دار الفاروق، عمّان.

ابن الساعي(1934)أبو طالب علي بن أنجب(674هـ/1275م)**الجامع المختصر وعيون السير**، تحقيق، مصطفى جواد، بغداد، المطبعة الكاثوليكية.

ابن الساعي(د.ت)تاج الدين علي بن أنجب البغدادي(ت674هـ/1275م)، **نساء الخلفاء المسمى جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والإماء**، تحقيق: مصطفى جواد، القاهرة، دار المعارف.

ابن الطقطقا(1966)محمد بن علي بن طباطبا(ت709هـ/1309م)، **الفخري**، بيروت: دار صادر.

ابن العبري(1992)أبو الفرج غريغوريوس (ت685هـ/1286م)، **تاريخ مختصر الدول**، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، بيروت، دار الشروق.

ابن العديم(1988) عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي(ت660هـ/1261م)، **بغية الطلب في تاريخ حلب**، 12 جزء، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر.

ابن العماد(1986)عبد الحي بن أحمد بن محمد(ت1089هـ/1678م)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ط1، 11جزء، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دمشق، دار ابن كثير.

ابن الفوطي(1416هـ)كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشيباني البغدادي(ت723هـ/1323م)، **مجمع الآداب في معجم الألقاب**، 6 أجزاء، تحقيق: محمد الكاظم، طهران، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

ابن الفوطي(2003)كمال الدين أبي الفضل عبد الرزاق بن أحمد الشيباني البغدادي(ت723هـ/1323م)، **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**،ط1، 16 جزء، تحقيق: مهدي النجم، بيروت، دار الكتب العلمية.

ابن الكازروني(1970)ظهير الدين علي بن محمد البغدادي(ت697هـ/1298م)، **مختصر التاريخ من أول الزمان إلى منتهى دولة بني العباس**، تحقيق: مصطفى جواد، بغداد، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة.
ابن النجار(1996)أبو عبدالله محمد بن محمود(643هـ/1254م)**الدرة الثمينة في أخبار المدينة**، ط1، تحقيق: حسين محمد علي شكري، دار المدينة المنورة للنشر والتوزيع.
ابن الوردي(1996)عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس(ت749هـ/1348م)، **تاريخ ابن الوردي**، جزآن، المحقق: المراجع الجامع لكتب التراث العربي والإسلامي، الأردن، بيروت، دار الكتب العلمية.
ابن بطوطة(1332هـ)محمد بن عبد الله اللواتي (ت:748هـ/1347م)، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. المطبعة الخيرية.
ابن تغري بردي(د.ت)جمال الدين أبو المحاسن يوسف(ت874هـ/1469م)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، 16 جزء، مصر، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، نسخة مصورة عن دار الكتب.
ابن جبير(د.ت)أبو الحسن محمد بن أحمد(ت614هـ/1217م) **رحلة ابن جبير**. دار صادر، بيروت.
ابن رجب(1424هـ)عبد الرحمن بن أحمد(ت795هـ/1392م)، **الذيل على طبقات الحنابلة**، 5 أجزاء، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، مكتبة العبيكان.
ابن كثير(1988)عماد الدين أبو الفداء(ت774هـ/1372م)، **البداية والنهاية**، 20 جزء، تحقيق: علي شيري، دار التراث العربي.
ابن منظور(د.ت)**لسان العرب**. 14 جزء، دار صادر، بيروت.
أبو الفداء(د.ت)عماد الدين إسماعيل بن علي(ت732هـ/1331م)، **المختصر في أخبار البشر**، 4 أجزاء، القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية.
أبو شامة(2002)شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل(ت665هـ/1266م)، **الذيل على الروضتين تراجم رجال القرنين السادس والسابع**، تحقيق، إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية.
أبي الفتح(1903)محمد بن عبيدالله بن عبدالله(583هـ/1187م)، **ديوان سبط ابن التعاويذي**، تحقيق: د.س مرجليوث، مصر، مطبعة المقتطف.
الأيوبي(1401هـ)محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه(ت617هـ/1220م)، **مضمار الحقائق وسر الخلائق**، تحقيق: محمد حبشي، القاهرة، عالم الكتب.
البيروني(1898)أبو الريحان محمد بن أحمد(ت440هـ/1048م)، **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، تحرير، Eduard Sachau، برلين: ليبزج.
البيهقي(د.ت)أبو الفضل(470هـ/1077م) **تاريخ البيهقي**. ترجمة، يحيى الخشاب وصادق نشأت، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية.
التنوخي(1995) القاضي أبي علي المحسَّن بن علي(384هـ/994م) **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**، 8 أجزاء، تحقيق: عبود الشالجي، ط2، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر.
الحموي(1977) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبدالله(ت626هـ/1230م)، **معجم البلدان**، 5 أجزاء، بيروت، دار صادر.
الحموي(1993)شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبدالله(ت626هـ/1230م) **معجم الأدباء**، 6 أجزاء، تحقيق: إحسان عباس، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي.
الخصاف(1904)أحمد بن عمرو الشيباني(281هـ/894م) **أحكام الأوقاف**، مطبعة بولاق، القاهرة.
الخطيب البغدادي(2001) أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت(ت463هـ/1070م) **تاريخ مدينة السلام وأخبار محدّثيها وذكر قطّانها العلماء من غير أهلها ووارديها**، 16 جزء، ط1، تحقيق، بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
الذهبي(2003)شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(748هـ/1347م)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير من الأعلام**، 15 جزء،، تحقيق:/ بشار معروف، دار الغرب الإسلامي.
الذهبي(2006)شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(748هـ/1347م)، **سير أعلام النبلاء**، 18 جزء، تحقيق: محمد أيمن الشبراوي، القاهرة، دار الحديث.
الزبيدي(د.ت) محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني(ت1205هـ/1790م) **تاج العروس من جواهر القاموس**، 40 جزء، مجموعة من المحققين، دار الهداية.
سبط ابن الجوزي(1990)شمس الدين أبو المظفر البغدادي (654هـ/1256م)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، الحقبة من345-447هـ/956-1055م، دراسة وتحقيق: جنان جليل محمد الهموندي، بغداد، الدار الوطنية.
السبكي(د.ت)تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي(ت771هـ/1369م)، **طبقات الشافعية الكبرى**، 10 أجزاء، تحقيق: محمود محمد الطناجي، عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
الشهرستاني(1998)أبو الفتح محمد بن عبد الكريم(548هـ/1153م)، **الملل والنحل**، تحقيق: أمير مهنا وعلي فاعور، بيروت، دار المعرفة.

الصابئ(1986)أبو الحسن الهلال بن المحسن(448هـ/1056م)، **رسوم دار الخلافة**، ط2، تحقيق: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت.
الصفدي(2000)صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبدالله(ت764هـ/1362م)، **الوافي بالوفيات**، 29 جزء، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث.
الطرابلسي(1902)إبراهيم بن موسى(ت922هـ/1516م) **الإسعاف في أحكام الأوقاف**. ط2، مصر، طبع بمطبعة هندية بشارع المهدي بالأزبكية.
عبد الحي الكتاني(د.ت)محمد عبد الحي بن عبد الكبير الإدريسي(1382هـ/1962م)، **نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية**، جزآن، تحقيق: عبدالله الخالدي، بيروت، دار الأرقم.
الغساني(1975)عماد الدين أبو العباس إسماعيل(803هـ/1400م)، **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك**. تحقيق: شاكر محمود، بغداد، دار البيان.
الفاسي(2000) محمد بن أحمد بن علي(832هـ/1428م) **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، ط1، جزآن، بيروت، دار الكتب العلمية.
القفطي(2005) جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف(ت646هـ/1248م)، **إخبار العلماء بأخبار الحكماء**، علق عليه ووضع حواشيه، إبراهيم شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية.
المسعودي(1893) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي(ت346هـ/957م)، **التنبيه والإشراف**، ليدن، مطبعة بريل.
مسكويه(2003) أبو علي أحمد محمد بن يعقوب (ت 421هـ/1030م)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، 6 أجزاء، تحقيق: سيد كسروي حسن، بيروت، دار الكتب العلمية.
المقريزي(1996) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر(ت845هـ/1441م)، **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، 3 أجزاء، تحقيق:ج1، جمال الدين الشيال، ج2،3، محمد حلمي محمد أحمد، المجلس العلمي للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
المنذري(1984)زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي(ت656هـ/1258م)، **التكملة لوفيات النَّقَلة**، ط3، 4 أجزاء، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة.
النويري(2004)شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد(ت733هـ/1332م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ط1، 33 جزء، تحقيق، نجيب مصطفى فواز، وحكمت كشلي فواز، بيروت، دار الكتب العلمية.
اليعقوبي(2010)أحمد بن أبي يعقوب(ت284هـ/898م) **تاريخ اليعقوبي**، جزآن، تحقيق: عبد الأمير مهنا، بيروت، شركة الأعلمي للمطبوعات.

**ثانياً: المراجع العربية الحديثة والمترجمة**

أبوت، ن. (1969)**ملكتان في بغداد، الخيزران أم هارون الرشيد وزبيدة زوجته**. ترجمة، عمر أبو النصر، بيروت: مكتب عمر أبو النصر للتأليف والترجمة والنشر.
الأرناؤوط، م. (2014)**وقف المرأة في عالم الإسلام**–مقاربة جديدة لمكانة المرأة في المجتمع، بيروت، جداول للنشر والترجمة والتوزيع.
الألوسي، م. (1346هـ)**تاريخ مساجد بغداد وآثارها**، تهذيب: محمد بهجة الأثري، بغداد، مطبعة دار السلام.
بروكلمان، ك. (1968)**تاريخ الشعوب الإسلامية**، ط5، ترجمة، نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، بيروت، دار العلم للملايين.
جواد م. (1960)**سيدات البلاط العباسي**، بيروت، دار الفكر للجميع.
جواد، م. (1985) أحمد، **دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديماً** وحديثاً، مطبعة المجمع العلمي العراقي.
الدوري، ع. (2007) **دراسات في العصور العباسية المتأخرة**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
زامباور(1951)**معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**. ترجمة: زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، القاهرة، مطبعة جامعة فؤاد الأول.
الزحيلي، و. (1998) **الوصايا والوقف في الفقه الإسلامي**، ط1، دمشق، المطبعة العلمية.
الزرقا، م. (1998)**أحكام الأوقاف**، ط2، عمان، دار عمّار.
ساعاتي، ي. (1996)**الوقف وبنية المكتبة العربية**، ط2، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
الصَّلابي، ع. (2006) **دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي**، القاهرة، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة.
العش، ي. (1991) **دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط**، ترجمة: نزار أباظة، محمد الصباغ، بيروت، دار الفكر.
**الفتوة والخليفة الناصر لدين الله**(1955) ضمن كتاب المنتقى من دراسات المستشرقين، ترجمة، صلاح الدين المنجد، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

فوزي، ف. (1998)**الخلافة العباسية**، جزآن، السقوط والانهيار، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع.
قحف، م. (2006) **الوقف الإسلامي**، تطوره، إدارته، تنميته، ط2، بيروت، دار الفكر المعاصر.
القدحات، م. (2005)**الحياة الاجتماعية في بغداد في العصر العباسي الأخير**(575-656هـ/1179-1258م)، عمان، دار البشير.
الكردي، أ. (2016) **دور النساء في الخلافة العباسية**، دار اليازوري العلمية، 2016.
الكيلاني، م. (2014) **تاريخ تكايا بغداد والمشيخة الصوفية في العهد العثماني**، بيروت، دار الكتب العلمية.
متز، آ. (1967) **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، جزآن، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده، يروت، دار الكتاب العربي.
مجمع اللغة العربية(2004)**المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية.
نيبور، ك. (2007) **رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها**، ط1، جزآن، ترجمة: عبير المنذر، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي.

**ثالثاً: البحوث والرسائل الجامعية**

ابن الكازروني(1979)ظهير الدين علي بن محمد البغدادي(ت697هـ/1298م) **مقامه في قواعد بغداد في الدولة العباسية**، تحقيق كوركيس عواد وميخائيل عواد، مجلة المورد(العراق) مجلد8، عدد4.
الراشد، س.(1977) " **طريق الحج بين الكوفة ومكة دراسة نقدية لطريق الحج بين الكوفة ومكة ودرب زبيدة مقرونا بدراسة ميدانية**"، جامعة ليدز البريطانية، رسالة دكتوراة.
العزايزة، و. (2004) **المرأة في العصر العباسي447-656هـ/1055-1258م**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إشراف الدكتور يوسف غوانمة.
يسرى،ع. (2016) ***مدارس نظام الملك، الدور والريادة***، دار العلوم، ديوبند، العدد5، السنة40.

**رابعاً: المراجع الأجنبية**

AL-Rudainy, Reem, ***The Role of Women in Buyid and Saljuq Period of Abbasid Caliphate(339-447/950-1055&447-547/1055-1152)***,University of Exeter, theses for the degree of doctor,2014.

Karsh, Efraim**(2013) Islamic Imperialism A history**, Yale University Press New Haven And London.

Koscielniak, Krzysztof(2010) **Prosperity and Stagnation** some Culture and Social Aspects of the Abbasid Period(750-1258), Krakow, Poland.

Muir, William(1915) **The Caliphate, Its rise, decline, and fall. Edinburgh.**

Toru, Miura(2018) **Comparative Study of the Waqf from the east dynamism of north and practices in religious and familial donation**, Tokyo.

# Endowment (Waqf) of women in the last Abbasid period 575-565H./1179-1258 AD

*Adnan Abdulla Obeidat* *

**ABSTRACT**

This study seeks to shed the light on the contribution of the Abbasid women to the Endowment (Waqf) in the last Abbasid period 575-565H./1179-1258 AD, after this role was restricted to the women of Bohia state and Seljuk state during previous periods. The wives of Abbasid caliphs in the study period from (Jawari) and from various origins, Turkish, Roman and Armenian, contributed to the work of the endowment, which focused on the construction of schools, mosques and (Ribat), and the endowment things of these institutions is to provide sources of income for the purpose of sustainability. These institutions highlighted many of the scholars who came to Baghdad and worked there, or learned the various sciences especially Islamic Sciences. The endowment of women in this period was limited to the charity endowment to gain the reward, and to do more good and charity, after the Abbasid woman directed most of the endowment on the educational institutions, which benefit a large segment of scientists and students of science, after they were allocated monthly rations, this contributed to the creation of scientific and intellectual renaissance. In addition to its contributions in the way of Hajj and the country of the Two Holy Mosques, And contributed to the development of society in various fields.

**Keywords:** Woman, Endowment, Schools, Mosques, Ribat.

* Faculty of Science and Arts, The World Islamic Science and Education University. Received on 13/10/2018 and Accepted for Publication on 16/6/2019.